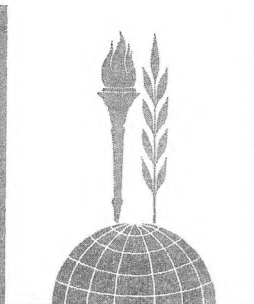


العدد الثاني عشر - السنة الرابعة  
١٩٧٠



ديوجين

مَصْبَاحُ الْفِكْرِ

تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو

ومركز مطبوعات اليونسكو





تصدر عن مركز مطبوعات اليونسكو ومجلة رسالة اليونسكو

١ شارع طلعت حرب - القاهرة

المجلد الثاني عشر

السنة الرابعة

١٩٧٠

### مقالات هذا المجلد

صفحة

٢ مقدمة ... ..

٧ المستقبل للقيم الجمالية ... ..

بقلم : كارل آشتورينر

ترجمة : د. فؤاد حسن زكريا

١٩ عقلانية ليسوتاردو فالنشى وفجر العلم ... ..

الكلاسيكي ... ..

بقلم : يوريس كوزنيشوف

ترجمة : سمير جبران

٢٩ الوثائق التاريخية واختيارها ... ..

بقلم : آدم شاف

ترجمة : فؤاد انطراوس

٥١ ماركس ونهاية التاريخ ... ..

بقلم : دويرت نكر

ترجمة : محمد علي أبو درة

٦١ مافى المجتمعات الريلية ومستقبلها ... ..

بقلم : هنري مفلراس

ترجمة : د. سمير نعيم أحمد

٧٩ الاتجاه الصخلى ... ..

بقلم : جوزيف بنسمان

و

دويرت ليلينغلد

ترجمة : خليل صابات

IBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية



# ديوجين

## مصباح الفكر

رئيس التحرير

عبد المنعم الصاوى

هيئة التحرير

د. مصطفى كمال طلبة

د. محمود الشنيطى

عثمان نوبيه

محمود فؤاد عمران

لإشراف النشر

عبد السلام الشريف

# ديوجين... إضافة جديدة

٠٠٠ وهي إضافة طيبة ، تزيد من حجم هذه الأسرة واحدة من اعلى المجالات العلمية ، ذات المستوى الرفيع في تاريخ الفكر الانساني .

ومن الاضافات ما يضيف ثقلا على كاهل الأسرة ، ومنها ما يزيد من اعبائها ، لكن منها مع ذلك ما يفسساعف من قلعة الأسرة ، ويقوى من عزيمتها ، نتيجة لما توفره لها هذه الاضافة الجديدة من عزة واعتزاز .

ان « ديوجين » مجلة يصدرها المجلس الدولي للفلسفة والكلام الانسانية ببازيس منذ سنة ١٩٥٢ ، وهذه المجلس واحد من المجالس ذات الشان ، التي نشأت في كنف هيئة اليونسكو ، وتحت رعايتها .

ومنذ صدرت مجلة « ديوجين » ، وهي تجلب اليها انتباه العلماء ومجال البحث العلمي والعنيتين بقضايا الفكر .

# إلى مجلات مركز مطبوعات اليونسكو

لكنها كانت تصدر بخمس لغات ، هي : الفرنسية ، والانجليزية ، والالمانية ،  
والايطالية ، والاسبانية •

وإيماناً من الشعبة القومية لليونسكو بأهمية تيسير الاطلاع عليها في المنطقة  
العربية فقد اتجه الرأى الى اصدارها باللغة العربية •

وصدر العدد الأول منها سنة ١٩٥٦ ، تحت اشراف ادارة الثقافة العامة بوزارة  
التربية والتعليم •

وتولى رئاسة تحريرها الصديق والزميل المرحوم الأستاذ مصطفى حبيب ،  
تعاونوه نخبة ممتازة من المثقفين العاملين معه •

لكن العبد لم يكن سهلاً اذاً ، لتوقف صدورها الى سنة ١٩٦٠ ، حيث صدر  
العدد الثانى ، ثم تعرضت المجلة لثل تلك الظروف مرة اخرى •

لكن هذين العليدين ، مع هلا ، قد مهلا الطريق الى انظام صاورها ، وركا في نفوس المتصلين بها الرا حل هيئة اليونسكو والمجلس الدولى للفلسفة والعلوم الاجتماعية على التعاقد مع الشعبة القومية لليونسكو بالقاهرة على اصدار مجلة « ديوجين » باللغة العربية مرتين كل عام .

وفى شهر مايو ١٩٦٦ صدر العدد الثالث من مجلة « ديوجين » ، واستمرت فى الصاور مرتين كل عام ، حتى آتمت من عمرها احد عشر عددا كاملا .

وعندما انشئ مركز مطبوعات اليونسكو ، بمقتضى قرار السيد وزير التعليم العالى ورئيس الشعبة القومية لليونسكو رقم ٣١٢ لسنة ١٩٧٠ ، اتجه الرأى الى اسناد مهمة اصدار مجلة « ديوجين » الى المركز ، على النسق الذى صدرت به المجلات الثلاث الجديدة ، وهى :

#### ● المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية

#### ● مجلة اليونسكو للمكتبات

#### ● مجلة العلم والمجتمع

وستصبح مجلة « ديوجين » هى الاضافة الجديدة الى هذه الأسرة المسبفرة المتواضعة ، التى تصدرها هيئة تحرير مجلة « رسالة اليونسكو » ومركز مطبوعات اليونسكو .

ولعله من حسن الطالع أن تأتى هذه الاضافة مع بشائر العام الجديد ، وأن تقترن باسم مجلة دولية تحمل اسم فيلسوف اغريقى عاش حياته كلها يبحث عن الحقيقة ، ويعمل فى يده مصباحه فى ضوء الشمس ، لأن ضوء الشمس الساطع لم يكن يكفيه وهو يبحث عنها .

ومنذ أيام ديوجين ، الذى عاش فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وحتى اليوم ، والبحث عن الحقيقة هو هدف العلماء ورجال الفكر والفلسفة والفنون .

بل ان المحقق أن هذا الهدف قد كان أبعد فى أغوار التاريخ ، فقد شهدت حضارة مصر القديمة باحثين عن الحقيقة قبل الميلاد بألاف السنين .

إن حكم أبيور كانت بحثا عن الحقيقة ، ونصائح الملك لابنه مريكارع كانت بحثا عن الحقيقة •

ولورة اختاتون كانت كذلك بحثا عن الحقيقة •

بل لقد كان البحث عن الحقيقة هدف كل حضارة منذ القدم ، ولم يكن مقصورا على مصر أو اليونان ، ففي الصين ظهر كونفوشيوس يبحث عن الحقيقة ، وفي الهند ظهر بوذا يبحث عن الحقيقة ، وفي بابل ظهر حمورابي يبحث عن الحقيقة •

لكن « ديوجين » قد كان أكثر هؤلاء القدماء تضحية في سبيل هذا البحث الشاق •

لقد عرف عن الدنيا وعن السلطة •

بل لقد وضع غايته فوق حاجته ، فعاش على كسرة خبز جافة ، ليملا عقله بالبحث عن غايته •

لهذا صار علما على كل الذين سبقوه وكل الذين عقبوه ، ولخصت موافقه كل هذا التاريخ في البحث الجاد المخلص عن الحق والعدل والحرية ، وتلك هي أهم عناصر الحقيقة •

لهذا فانا في هيئة تحرير مركز مطبوعات اليونسكو نشعر بالقال الحسن ، ونحن نستقبل هذه الاضافة الجديدة الى أسرتنا ، فرحين بها ، معانقين لها ، بكل مائة من الحماسة •

على أن غمرة هذا الشعور لن تصرفنا عن تحية ذكرى الزميل العزيز الذي بدأ هذا الشوط ، فأشرف على اصدار الأعداد السابقة من هذه المجلة •

انا نذكر الزميل العزيز الأستاذ مصطفى حبيب بكل اعزاز ، ونحیی ذكراه في احترام •

ونذكر الجهد الكبير الذي بذله معه معاونوه من أعضاء هيئة التحرير التي شاركتهم هذه المسئولية •

ونذكر جهد المختصين في الشعبة القومية لليونسكو وأعضاء لجانها الفنية من  
المختصين الأجلاء ، الذين حملوا العبء بعد وفاة الأستاذ مصطفى حبيب حتى يصل  
الينا عزيزا قويا ، على ما سنراه في مواد هذا العدد •

لقد كان العالم الكبير الدكتور فؤاد زكريا على رأس هذه المجموعة من الأساتذة ،  
وفي الحق ، فإن اختيار مواد هذا العدد ، والإشراف على ترجمته ومراجحته ، يرجع  
فضله إليه واليه •

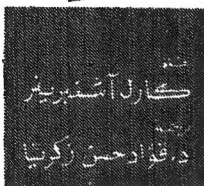
وإذا كنا نرجو من الله شيئا فهو أن يوفقنا إلى أن نكون في مستوى البلايات  
الأولى للأعداد السابقة من هذه المجلة ، وأن نوفق في أن تصدر بعد ذلك مرتين في العام  
 بانتظام ، وأن نصيف ما نستطيعه من جهد ، لتستمر عجلة التقدم ماضية في طريقها •

والله المسئول أن يحقق هذا الرجاء ••

عيد النعم الصاوي



# المستقبل للقيم الجمالية



## المقال في كلمات

هل تصبح للقيم الجمالية اليد الطولى في عالم تمزق أوصاله الأخلاقيات السياسية والمذهبية والاقتصادية وتغيم في سمائه نذر حرب شاملة لا تبقى ولا تذر ؟ ان لكل عصر في نظر الكاتب قيمه الخاصة التي تجب ماعداها من القيم ، فقد كانت روما مثلا تفضل قيمة عالية على النظام الاجتماعي ولا تلقى بالا الى الروحانيات ، وذلك على نقيض العصور الوسطى التي كان للدين فيها المكانة العليا . وحيثما حل القرن التاسع عشر الزوت جميع القيم واصبحت القيمة الكبرى للصناعة والسيطرة المادية على الطبيعة . اما في عصرنا هذا فالرخاء المادى له القدر الملى . ويعتقد الكاتب ان القيم الجمالية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقيم الاقتصادية ، وان القيمة للجمالية قيمة ينبغي ان تتجسد في الوسائل المادية . ومن ثم فان الامان المادى والرخاء هما الاساس الحقيقي لازدهار هذه القيم ، فالانسان بطبيعته يعتبر تجميل حياته في المحل الثاني بعد الامة اوده واشباع حاجاته المادية . ويرى الكاتب ان الرخاء المادى في عصرنا هذا سوف يتحقق نتيجة لسمى الانسان المتواصل للسيطرة على اساليب الانتاج الصناعى ، ولاحتمال استغلال طاقه لانهاية لها من داخل الدرة . اذا تحقق هذا ، وليس هذا امرا مستحيلا ، فسوف تحل مشاكل العالم السياسية التي هي في الحقيقة وليدة

مشاكله الاقتصادية • عندئذ ستحتل القيم الجمالية قدرا من الصدارة يجعلها لا تشغل النصيب الأكبر من وقت الناس وفكرهم فحسب ، بل تتجسّم في اتجاه أعمالهم في الحياة بوجه عام •

أ يكون في عنوان مقالنا هذا من المفارقة ، ومن الافتقار الى الواقعية ، بقدر ما يوحى به للوهلة الأولى ؟ لاشك في أن المرء يحتاج الى قدر غير قليل من قوة الحجة والقدرة على التأثير في النفوس ، لكي يقنع أى شخص بأن عالما تمزقه المنازعات والمصاعب الاقتصادية ، والنتائج المترتبة على الحرب ، والحرب نفسها ، يوشك أن يبدأ عصر ذهيبا من نوع • غير أن ما هو بسبيل الحدوث ليس عالما طوباويا ، فضلا عن أنه - أيا كان- لن يولد على حين غرة • ان ماتوحى به التغيرات الهامة التى تطرأ على اتجاه الأحوال البشرية ليس أول صراخ لطفل ولید ، وانما هو أول عمل مذهل يقوم به كائن بلغ بالفعل مرحلة الشباب ، ويسير بخطى حثيثة ليحتل وسط المسرح ، ولن يكون من الممكن إسكات صوته بعد ذلك • والواقع أن عصر النهضة الأوروبية يقدم لنا مثلا واضح الدلالة على ما نقول ، فنحن لانعرف الأصول الأولى لذلك التغير الذى وصل الى مرحلة النضج في كتاب ييكون « الأورجانون الجديد » • ونحن نتأمل هذا الكتاب بنظرة واجبة يبدو لنا شيئا بلغ بالفعل قدرا كبيرا من التقدم ، بل انه ليبدو أشبه ما يكون بتخطيط لمؤامرة يقوم بها العلماء لكي يصفقوا على العالم صورة جديدة ، عالما يبرر السعى فيه الى المعرفة التماس مزيد من القوة • ويقول ييكون ان تحقيق ذلك كان يقتضى « أن أجعل عقلى خاضعا للأشياء » •

على أن المجال الجديد ، مجال الجماليات ، الذى يجرى الإعداد له الآن ، هو الخطوة التى تلى خضوع العقل على هذا النحو للأشياء • فالقيمة الجمالية قيمة ينبغي أن تتجسد في الوسائط المادية أو الظاهرية ، أيا كان مقدار ايغالها في باب الخيال ، وهي في هذه الناحية تشترك مع القيمة الاقتصادية • وسوف نستخدم هذا التعبير الأخير ، أعنى القيمة الاقتصادية ، بمعنى اشباع ضرورات الحياة ، التى قد يكون من بينها قدر معين من رغد العيش المادى ، أو القدرة عليه • ولو نظرنا الى اكتساب وقت الفراغ ، الذى هو أفضل مناخ تتحقق فيه سيادة القيمة الجمالية ، لوجدنا أنه كان على الدوام جدلا قانونيا على الأقل من أهداف اسهام الفرد في النظام الاقتصادى للإنتاج • غير أن الحاجات الجمالية واشباعها لا ينتظران بلوغ وقت الفراغ كاملا • ففي كثير من الأحيان نراها متشابكتين في نسيج أكثر أنواع النشاط اعتيادا • وفيما عدا ذلك فانهما يلتصقان لذاتهما فحسب ، بوصفهما فنونا جميلة ، كلما خمد ضوت الحاجات الاقتصادية البهتة وأشبعت في وقت الفراغ •

وهدفنا في هذا المقال هو أن نثبت أن أي حد تقترب من تحقيق مثل هذه الغاية ، لا بالنسبة إلى القلة وحدها ، بل إلى الكثرة أيضا . ولكن ينبغي أن ننبه ، كما أشرنا من قبل ، إلى أن ما يشر به هذا التطور ليس عصرا ذهبيا ، لا بقدر ما تصور مقدما أن كل ما سيتحقق في المستقبل ذهبي . فما نتوقه هنا ليس واحدا من تلك الآمال الضحلة التي كثيرا ما يرجيها التاريخ البشري تحقيقها ، وإنما هو شيء واحد ، شيء واحد فقط ، أعني عصرا سوف تحتل فيه القيم الجمالية وكل ما يتصل بها قدرا من الصدارة يجعلها لا تشغل النصيب الأكبر من وقت الناس وفكرهم فحسب ، بل تتحكم بدورها في اتجاه أفعالهم في الحياة بوجه عام . وقد يحدث أي عدد من الكوارث يؤدي إلى زوال هذه الإمكانيات ، ولكن هذه الأخيرة ، في عمومها ، تنصف بظايع من شأنه أنه لو حدثت هذه الكوارث لضاع ما هو أكثر بكثير من القيم والآمال الجمالية . ومن جهة أخرى فكلما تعاطم الأمل الجمال كان من المرجح أن يتضاءل خطر هذه الكوارث . فلنبحث الآن في الأسباب التي تؤدي بنا إلى ترقب ذلك التغير الذي اقتصرنا حتى الآن على ذكر اسمه . وسيكون علينا أولا أن نبرر استخدام تعميمات واسعة معينة نحمل بسيطرة القيم ، ثم نبحث في الجماليات منظوروا إليها من خلال هذا الدور المسيطر للنسبة .

إن أفعال البشر تصنف ، في عمومها ، إلى فئات تندرج هذه الأفعال تحتها : كالفن ، والعلم ، والصناعة ، والدين ، وما إلى ذلك . ويمكن أن يصيب هذا التصنيف واسم وأساسا إلى حد يتضمن معه أن كل عصر من عصور التاريخ قد كرس بعضا من وجوده لكل فئة من هذه الفئات ، أو يمكن أن يصيب أضيق ، بحيث أننا حين نتأمل كل عصر على نحو أدق نستطيع أن نرى فيه ازدهارا خاصا لواحد من أوجه النشاط هذه ، نخلط نسبيا في بقية الأوجه ، وهكذا فإننا عندما نفكر في العصور الوسطى نخطر ببالنا الدين على الفور ، مثلما نخطر ببالنا الصناعة والسيطرة المادية على الطبيعة عندما نسعرض بأذهاننا القرن الماضي . صحيح أننا جميعا أصبحنا على وعي بالاختلاف التي تكمن في وضع بطلاقات محددة على العصور البشرية ، بطلاقة مقاربة لقرن أو جوست . فنتسمى هذا عصر الإيمان ، وذاك عصر الفن ، وآخر عصر الآلة ، ولكننا مع ذلك نعلم بالضرورة إلى هذه الصفة المحببة مرارا وتكرارا . والواقع أن فائدتها توقفت على ما نفعله بها ، كما هو الحال في جميع التعميمات . وحقيقة الأمر أن كل فئة قيمة تتحقق ، على يد أدراك تعميمات تدبر عن سيادة خصائص أو علاقات من نوع ما . ولا مفر لنا ، إذا شئنا تفسير أي شيء ، من أن نتحمل مخاطر هذه التعميمات . مثال ذلك أن جوانب متعددة من أفعال الأوروبيين في العصور الوسطى يستحيل تفسيرها تماما على الملاحظ الذي لا يعرف كنه الحماسة الروحية ولا يعترف بأنها عامل تفسيري له أهميته ، إن لم يكن فائق الأهمية في مواقف معينة ، فلو اقتصر على التعميمات الاقتصادية في تفسير أفعال الناس ، ولو نظر إلى الاستخدام السليم لمهارات مثل تربية الحيوانات ، والتخزين ، والتسويق ، وما إلى ذلك ، على أنها هي العلامة الرئيسية على السلوك الحرص ، بل العقول ، لبنت له بعض مظاهر سلوك الإنسان العصر الوسيط

حقائق لاجدوى منها ، كما قبلوا بالفعل للشخص الماركسي . فمن الواضح أن انسان العصر الوسيط كان يصفى قيمة عليا على شيء آخر غير السيطرة المادية على الأرض ، والا لاستطاع أن يحرز فى ذلك نجاحا أعظم مما أحرزه بالفعل . فحتى مع التسليم بأن المعرفة العلمية تستغرق وقتا طويلا لكي تتراكم فانه كان يستطيع أن يصل الى قبلر أكبر بكثير من السيطرة على الطبيعة لو أنه وضع هذه السيطرة نصب عينيه ، وكرس لها جهوده ، ذلك لأنه لم يكن أقل ذكاء منا ، وكل ما فى الأمر أن موضوعات الايمان كانت عنده أعلى قيمة من اكتساب المعرفة والقوة ، وكل ما نود اثباته بهذا هو أن من المفيد البحث عن عوامل موجبة في مختلف العصور ، وهى عوامل يمكن أن يطلق عليها اسم القيم ، والبحث عن هذه العوامل ليس مفيدا فحسب ، بل انه ضرورى بالنسبة إلى أغراض التفسير .

إن القيمة ، بالمعنى الذى نبحثها به ، تكون لها مكانة عليا فى مجتمع ما ، اذا استطاع أنصارها ، بفضل قوتهم المادية أو نفوذهم أو كليهما معا ، أن يدفعوا المجتمع إلى التضحية بالقيم الأخرى من أجلها . ومن هذه الزاوية نجد أن الشرف السياسى أو المجد كانت له الصدارة أحيانا على قيم مادية كان يظن أنها ثمينة بحق ، كالقول الخصبة أو المدن القديمة . ذلك لأنه عندما كانت الأمور تستدعى اتخاذ قرار كانت المدن والجقول تعرض للتخريب ، بل كانت الحياة البشرية نفسها تعرض للخطر فى الحرب ، من أجل الحفاظ على قيمة أخرى معينة . وبطبيعة الحال فإن من الصعب أن نحدد بدقة ما هى القيمة الإيجابية التى تكون هى العليا حتى فى حالة كهذه . والأسهل ، على وجه العموم ، أن نحدد القيم التى يضحي بها . فهل كان الشرف السياسى هو الذى جعل بريطانيا تواصل الحرب فى عام ١٩٤٠ ؟ لاجدال فى أن هذا ليس هو الاسم الصحيح فى هذه الحالة . وكل ما نعلمه هو أن ما كانت له القيمة العليا لم يكن شيئا ماديا ، إذ أن المادى قد ضحى به عن طيب خاطر دفاعا عن القيمة الروحية . ولو كانت المحافظة على الحياة ماديا هى وحدها التى تهتم لكان من الممكن شلؤها ، بضمن ما . وبالمثل يمكننا أن ندرك أن حرص العصور الوسطى على الرخاء المالى ، والسيطرة على الأرض والبحر والسماء ، والمعرفة الدقيقة بالطبيعة ، وما إلى ذلك . كان أقل بكثير من حرصها على النجاة مما كان ممرضا للخطر فى تلك الأئشودة الخيفة القليلة ، وأعنى بها أنشودة « النعمة الالهية » فى « قداس الموتى » .

لقد كانت روما فى أوج عظمتها تضحى قيمة عالية على النظام الاجتماعى وعلى مقدار معين من النظام الجمالى البصرى ، وتضحي قيمة أقل ، وإن طلت مع ذلك أعلى من كل ما عداها ، على الرخاء المادى . ولم تكن روما تعزو إلى الزخانية مسوى قيمة ضئيلة ، ولكنها أيضا لم تقم إلا بجهود بسيط جدا من أجل الكف عن الطبيعة ، مالم يكن ذلك استهدافا لغايات عملية ماثلة للعيان . كذلك فإن لدينا بطبيعة الحال سجلا حافلا وعميقا بقيم دولة العبرانيين القديمة . ففي المجتمعات الدينية ، أو المجتمعات التى تحكمها سلطة لاهوتية ، كانت تبدل جهود للتحكم فى أبسط سلوك يحدث فى

المجتمع وفقا لمتعضيات قيمة روحية ما • فزراعة القمح ، واختيار الأعداء والحلفاء ، واختيار اللحظات الحزنية للقيام بأفعال محددة ، وتشسييد المدن والأبنية وأماكن العبادة ، وتحديد أسلوبها ، وحجمها ، وطايعها ، وأنماط السلوك في الزواج والييلاد والوفاء ، واختيار أساليب اللهو ، الخ ، كل ذلك يتحكم فيه قرار يصدره شخص ما ، يحدد ان كانت هذه الأفعال تسهم في تمجيد الله أو اتقاء غضبه • وانا لنجد في دولة العبرانيين القديمة ، وفي العصور الوسطى ، وفيما يمكن أن يطلق عليه اسم « نيو انجلند » القديمة ، نماذج قريبة من هذا النمط • كما كانت هناك حالات انحراف عن المثل الأعلى وانهايار في نهاية الأمر عندما ظهرت قيم أخرى احتلت المكانة العليا • أما القيم الأشورية القديمة ، وقيم اسبرطة ، فكانت مختلفة كل الاختلاف ، يتغلغل فيها المثل الأعلى العسكري • وإذا كان الدين قد ازدهر فلم يكن ذلك ، على خلاف الحالات السابقة ، الا من حيث هو عامل مساعد للحرب •

وفي ثقافتنا الحالية تنطلق أصوات العالم والفنان ورجل الدين ، ناعين على عصرنا أنه لايفضى قيمة عليا على المعرفة أو الفن أو العقيدة الالهية • وهم جميعا يرون أن شيئا آخر هو الذى يبدو على الدوام أنه يشغل المحل الأول في أذهان الناس خلال الأوقات العصيبة • فبالرغم من الاختلاف بين هذه الأنواع المتعددة من النقاد فإنهم جميعا يجدون شيئا يقف معارضا لهم ، أكثر مما يجدون أنفسهم في موقف المعارضة بعضهم إزاء بعض • ومن الواضح أن ذلك الذى يخرج منتصرا عندما يتعين الاختيار هو - أيا كانت طبيعته - القيمة العليا في نظر العصر •

ولن نجد أنفسنا في سرد حجج أو إيراد احصاءات لكى نثبت أن الرخاء المادى هو الذى تقدم الصفوف آخر الأمر بوصفه القيمة الأولى في عصرنا • وحسبنا أن نتذكر الجهود التي يتوقع الناس من الحكومات الحديثة ، شرقا أو غربا ، أن تبذلها من أجل المحافظة على الرخاء المادى في الحاضر والمستقبل ، لكى ندرق مقدار ابتعادنا عن تلك الحكومة التي لم تكن تستطيع أن تركز الا على « الله وحلى » •

وعلى عكس ما يقول به الماركسيون فإننا اذا قمنا باستعراض لثقافات الماضى كان من الصعب أن نجد ثقافة واحدة كان الرخاء المادى فيها هو العامل الأعلى والحاسم الذى يستطيع أن يحفز قبيلة أو أمة كاملة على تكييف كل نشاط آخر وفقا لمتعضياته ، أما تحليل ذلك فلا ينبغي أن نلخب من أجله بميلنا ، فهذا التحليل هو أن تلك القيمة - أعنى الرخاء المادى- كانت في الماضى أصعب تحقيقا بكثير بالقياس الى البسالة في الحرب ، أو الوحدة الروحية مع الله ، أو الولاء لروح الجماعة • صحيح أن أفرادا معينين أو جماعات معينة في المجتمع قد ينالون منها نصيبا كاملا - كما هي الحال في سائر القيم جميعا - ومع ذلك فقد كان من المستحيل أن تصبح هي القيمة العليا في الحالات التي لم يكن الجميع فيها قادرين على أن يكون لهم نصيبهم منها • فصرنا هذا هو وحده العصر الذى أصبح فيه الرخاء الاقتصادى في متناول يد كل انسان ، الى حد

معقول ، ومن المؤكد أن عقيدة الوطنية ، التي ازدهرت بقوة طوال قرون عدة ، أخذت في الاضمحلال في أوروبا . فليس من السهل بث الحماسة في نفوس الفرنسيين عن طريق « المجد » . كما أن السياسة الحكيمة استطاعت أن تجعل من بقايا النازية مجرد نزعة بونابرتية مختلفة في القرن العشرين ، ففي جميع أرجاء الأرض ينظر الى التمكن من أساليب الانتاج الصناعي على أنه المفتاح السحري لتحقيق الوفرة الاقتصادية لكل انسان . ومن ثم فإن كل القيم الأخرى ترفع على الانحراف في هذا الاتجاه ، أو على الخروج من المسرح ، أو الوقوف على جانبيه . في مثل هذا الموقف لا يكون للمتدينين مفر من أن يتصدوا للاحتجاج على مادية العصر . كما أن المتسكين بولائهم للقائد العسكرية والوطنية ذات المجد التليد يأسفون أشد الأسف لتلك الروح الدولية المتفائلة في الأمم المتحدة ، التي تتخذ لنفسها من تحقيق السلام والأمن هدفا . أما ولاء هذه المنظمة لتلك الأهداف فلا ينشأ عن الاقتناع بأن الحرب خطيئة أو بأن الحماسة الوطنية شر في ذاتها ، ولا حتى بأن كليهما منفرة من الوجهة الجمالية ، بل ينشأ عن الاقتناع بأنه بدون السلام يكون الاستقرار والأمن المادي ، الذي تعدمه أساسا لكل نوع آخر من الأمن ، مستحيلان بالنسبة الى العالم في مجموعة . وهكذا يشتد الحرص على كفاية السلع المادية وتوافرها ، ويمع الفرح اثر كل نيا يعلن وجود كميات لاحد لها من الطاقة الذرية أو غيرها في الأرض أو البحر أو الجو . ومن جهة أخرى نشعر بقلق حين نسمع مثلا أن نحاس العالم سوف يستهلك خلال عقد من الزمان لو ظل كل بلد يستخدمه بالعدل الذي يستخدم به في الولايات المتحدة ، فلنتصور الآن مقدار عدم الاكتراث الذي كان يمكن أن يبدية قديس في العصر الوسيط ازاء النبا القائل ان حصيلتنا من النحاس قد تنفذ قريبا ، كذلك فإن التحمس للوطنية والعسكرية لن يشعر بالقلق الا اذا اعتقد أن قوات بلاده المسلحة لم تكن لديها كمية تكفي لكي تظل باقية الى الأبد ، أو أنه ليس من الممكن الاستعاضة عنها ببديل آخر .

أما صاحب النزعة الدولية فانه يرتاع اذا نظرالى النحاس على أنه عنصر ضرورى في الجهاز الذي يزود العالم كله بالرخاء المادي ، أو اذا أدرك أن نقصه سيؤدى الى العودة بنا الى عصر من العوز والحاجة مرة أخرى .

وعلى الرغم من أن المؤيدين المتحمسين للقيم التي كانت في وقت من الأوقات هي العليا كالقيم الدينية لا يملقون آمالا كبيرة على استعادة النمط الذي كان سائدا في العصور الوسطى ، فانهم يتحمسون لانتشار النزعة المادية ، أى الاهتمام الطامح بالرخاء المادي . ويبدو أن الدين قد أصبح على وجه العموم قاننا بأن يحتل مكان عنصر واحد من عناصر القيم ، بدلا من أن يحتل المكانة الأولى ، وإن كانت كنيسة روما على غير استعداد للاكتفاء بذلك . وقد ينتهى الأمر بالدين الى أن يعنى اما شيئا يوجه عقيدتنا الدينية المتعلقة بالقيم المادية وغيرها من القيم العليا ، بحيث لا يحض على الاخاء وحده ، بل يحض بوجه خاص على علم الأناثية في استهلاك السلع ، واما أن يعنى ، من وجهة النظر الدنيوية مجرد الولاء لأمل روحى خاص معين . أما بقايا

النزعات الوطنية ، اذا جازت تسميتها بهذا الاسم ، وهى الاططنية ، والاسيوية ، فاما انها سيبيد بعضها بعضا ، وبذلك قد تقضى ، لا على الرخاء المادى فحسب ، بل على الانسان نفسه ، واما أن تتحول الى أنواع من الحماسة الاقليمية للمقبولة المتسامحة . والواقع أن هذه النزعات الوطنية هى من بين العقبات القليلة الباقية فى وجه السيادة العليا لعقيدة الرخاء المادى الشامل . وانه لمن المشكوك فيه ألا يكون معظم الناس متفقين مع الكلمة المشهورة التى قالها تشارلس ولسن ، وزير الدفاع الأمريكى السابق ، وهى أن ما هو خير لشركة جنرال موتورز خير للبلد كله . إذ أن جنرال موتورز هى بالنسبة لهم رمز للأداة التى تكفل الوفرة . أما خصومه فيمكن أن يشتعلوا على مدرستين فكريتين مختلفتين : الشكاك الذين يرقابون فى أن تكون جنرال موتورز حريصة بحق على رخاء الانسان المادى ، وخصوم المادية الذين يعتقدون ، مع الأسف ، أنها حريصة فعلا على هذا الرخاء .

وهكذا فأننا نعيش فى عصر أصبح من الواضح فيه أن الاعتبارات المادية هى الحاسمة . ولو قدر لنا أن نشهد فى أى وقت شيئا مشابها لتدين العبرانيين القدماء أو الايرلنديين أو « للروح الشعبية » التيوتونية ، فالأرجح أن ذلك سيكون خارج المناطق التى تضطلع فى أيامنا هذه بالأدوار الحاسمة . وستكون مثل هذه القيم مساعدة لقيم أخرى ، أو ربما قدمت بوصفها بديلا عنها ، مثلما يجذب البعض حلول الدين محل التحليل النفسى . أما الولاء للروح الذى أدنى بالقديسين الى تفسير الأمر الإلهى القائل : « بع مالديك وأقبل ولتبعنى » بأنه أمر يدعو المرء الى أن يحيا حياة الحاجة والحرمان ، ويدعو الباقين جميعا الى أن يفعلوا هذا ، فانه لا ييسر فى نظرنا اليوم أقل من مقاطعة وتخريب للنظام الاقتصادى « القاتم » ، مالم يقتصر تأثيره على أقلية ضئيلة . ولقد كان الضباط العسكريون فى الماضى ينظرون فى كثير من الأحيان بعين الارتياح الشديد الى شجع الانسان الذى ينصب اهتمامه على الاقتصاد وحده . فالضابط البروسى كان فى أيام مجده ينظر اليه باحتقار . ولكن لو قام العمال بتفسير مختلف أنواع التنديد بالنزعة المادية تفسيراً حرفياً ، وخرجوا الى الحفول وضياء الشمس كما يخرج الصغار فى « حملة الأطفال الصليبية » ، أفكان يمكن احتمال ذلك طويلا ؟

إن المستقبل المبشر بالأمل فى عقيدة الرخاء المادى يكمن فى احتمال استخلاص طاقة غير محدودة من داخل الذرة . صحيح أن أول استخدام للذرة ، شأنها فى ذلك شأن البارود ، كان استخداما عسكريا للدفع عن مصالح وطنية . ولكن كل شخص يعلم أن الديناميت يمكنه أيضا إزاحة الجبل من أجل شق طرق واسعة سريعة ، وأن الطاقة الذرية لن تظل ملكا لهيئات أركان الحرب .

ولقد علت بالفعل أصوات كثيرة تجلنا من النتائج الاجتماعية فضلا عن الاقتصادية لهذا التحول ، الذى سيصبح فيه الفحم والزيت ، من حيث هما وقود ، من النفايات ، وكأنهما روث البهائم ، فالنظام الاقتصادى ، وفقا لتكوينه الحالى ،

يقتضى توظيف نسبة كبيرة من السكان في الانتاج . ولقد كان هؤلاء السكان في العصور الماضية يقبلون الكدح الجسمي بوصفه نتيجة لخطيئة آدم ، أو يقبلونه بوصفهم قطيعا يمتلكه الأشراف امتلاكا شرعيا فحسب . أما الآن فهم يقبلونه على أنه أبسط وسائل تحقيق الأمان المادى : ولكن هب أن هذا الأمان يبدو ميكنا ، أو هو بالفعل ممكن ، بجهود بسيطة ، أو بلا مجهود ، حيث لن يحترق آدم ولن تفزل حواء ، وسيكون كل شخص مع ذلك من الأشراف ؟ ان هنه لم تعد أحلاما ، وإنما هي الامكانيات الملموسة للقرن المقبل . وحتى على الرغم من أن المشكلات الكبرى في العالم تبدو في الوقت الحالى عسكرية ومياسية ( والواقع أن عدد المشكلات ذات الطابع السياسى البحت هو ، في نهاية المطاف ، عدد ضئيل ) فإن تسوية هذه المشكلات بالحرب أو بالدبلوماسية مستحيل مالم تواجه تلك المشكلات الأشد خطرا ، والتي تكمن من ورائها ، وهي مشكلات اقتصادية بحتة ، أعنى أنها مشكلات تتعلق بكيفية توزيع سلع العالم على نحو من شأنه أن يمنع الحاجة الاقتصادية من التحول الى أزمة سياسية . ولكن على الرغم من الاضطرابات الشديدة التي لافتر منها في النظام الاقتصادى فإن هذه المشاكل الأخيرة قابلة للحل ، وإذا تم حلها فماذا يحدث بعد ذلك ؟

أول ما نلاحظه ، في محاولتنا أن نجيب عن هذا السؤال ، أن هناك قيما أخرى غير تلك التي كنا نتحدث عنها حتى الآن ، لم تكن في أى وقت هي العليا على نطاق عالمى شامل ، وأعنى بها المعرفة والاستمتاع الجمالى . وهناك بعض الأمور التي نستطيع أن ندرک أنها حتمية بالنسبة الى واحدة على الأقل من هذه القيم .

لقد كان من الشائع وقتا ما الكلام عن « موت الفن » ، على أن اعلان موت الفن لم يكن سابقا لأوانه فحسب ، بل ان القيمة الجمالية بسبيلها الآن الى السيادة بوصفها القيمة العليا ، لأول مرة في التاريخ ، والواقع أن الكفاية الاقتصادية كانت دائما في الماضى هي الشرط الضرورى ، وان لم تكن الشرط الكافى ، لازدهار القيمة الجمالية ، وكما رأينا من قبل فقد اقترب الوقت الذى لن يكون فيه الأمان والاستقرار الاقتصادى مجرد امكان ، بل سيصبح ذلك شيئا مرجحا ، مالم تحدث حرب شاملة تنهار معها الحضارة . ولما كان من الضرورى أن يتجسد الفن في عالم الظواهر — وهذا أمر ضرورى له أكثر مما هو ضرورى لبقية القيم غير الملموسة — فإن القيم الجمالية هي التي تفتقرن بطبيعتها بالقيم المادية والاقتصادية — فلا بد أن تظهر في النهاية قيم تبرر وجود الانسان بعد أن يكون قد أصبح كل حاجاته المادية الأساسية . والواقع أن القيمة الحديثة للقضية القائلة « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » ترجع الى عهد ماثيو أرنولد على الأقل . فإذا ما رقيت القيم الدينية الأكثر ضيقا أن تحتل هذه المكانة فهل هناك قيمة أخرى غير القيمة الجمالية يمكنها أن تحل محلها في مجتمع مشبع من الوجهة الاقتصادية ؟

ان مشكلة وقت الفراغ قد أصبحت الآن مشكلة مالوفة ، ولكنها ليست مشكلة بالية على الإطلاق . فقد يتبين أن الفراغ ، الذى هو شرط كل استمتاع جمالى ، هو



أفدح مشكلات الانسان قاطبة . والواقع أن الفراغ مشكلة يتفق عليها الانسان ، حتى في الوقت الحالي ، مبالغ باهظة من المال . فسنذ نهاية الحرب العالمية الأولى شهدنا نموا هائلا لمعد كبير من الظواهر الجمالية وشبه الجمالية ، والظواهر التي تزعم أنها جمالية . ففي المصور السابقة على الثورة الصناعية كان التعبير الجمالي بالنسبة للانسان المادي يتمثل في الصناعات اليدوية ، وفي العبادة الدينية ، والاستعراضات العسكرية ، وما شابه ذلك ، ولكنه لم يكن يتمثل في المباريات والرياضة على نطاق شامل الا نادرا . على أن القرن التاسع عشر شهد ظهور نوع منخفض المستوى من الألعاب والفنون وأنواع الترفيه ، في مقابل الأنواع الأرفع منها . وأصبح لدينا عندئذ صالات الموسيقى الراقصة والفودفيل ، والكتاب الرخيص ، والمباريات التي يقبل عليها الجمهور في كل البلاد الغربية . وفي العقد الثالث من هذا القرن شهدنا انتشار الراديو والرياضة على نطاق هائل الضخامة ، وخاصة في الولايات المتحدة . والواقع أن أي مواطن كان يعيش في أي عصر آخر خليق بأن يدهش حين يرى الصحيفة الأمريكية العادية تكرر للرياضة مساحة تزيد - إذا قيست بالبوصات - عما تكرر لأي موضوع ثابت آخر تفريرا . وسوف يصعب عليه أن يصدق أن ما كان من قبل مجرد نزعة على ظهر الجيول في مروج القرية قد اتخذ الآن هذه الأبعاد الضخمة . وبالمثل فإن رواية القصص أو مؤلف الموسيقى في العصر الرومانتيكي لابد أن يدهش للتطور الذي لحق فنه في الكتاب الرخيص ، والمجلة ، والراديو ، والتلفزيون .

ولا شك أن أسهل الأمور على المرء هو أن ينفذ يديه عن هذا كله . ولكن هل هذا ممكن ؟ اننا نرى بأنفسنا أن بعض الفنون لم تعرف في تاريخها ما عرفته في أيامنا هذه من انتشار وإقبال ، سواء نظرنا إلى هذا الانتشار والإقبال على أنها خير أو نظرنا إليها على أنها شر . فهناك وقت وجهد هائلان يكرسان لاستغلال ذلك الفراغ الذي هو نتيجة حتمية مصاحبة للسعي الناجع وراء الرخاء المادي في عصرنا . وإذا كانت الألعاب والفنون قد شغلت منذ أقدم المصور وقت الفراغ لدى الأقلية فإن ما تشهده في أيامنا هذه إنما هو ترديد لهذا على أوسع نطاق ممكن بالنسبة للانسان العادي .

ومن المؤكد أن الألعاب ليست هي الفنون الجميلة بأي معنى معترف به ، ولكنها على الأقل قريبة منها قرابة وثيقة . وربما كان موقعها في مكان ما بين الفنون الحربية التي تحدثنا عنها من قبل والفنون الجميلة ، ولكن الأمر المؤكد هو أنها مسائل متعلقة بوقت الفراغ ، هل حين أن الحرب لم تكن كذلك قط ، حتى عندما كانت أمجاد عصر الفروسية في أوجها . كذلك لا يمكننا أن نعترض باتخاذ موقف الترفع الذي يتخلله الذوق الخبير ، فنقول إن هذا كله لا شأن له بالفن مفهوما بمعنى خاص رفيع . فلو صبح هذا النقد لكان من حق المرء أن يفترض ، بل لعل ، على اشتراك السواد الأعظم من المجتمع ، بطريقة سطحية ، في العبادة الدينية في المصور الوسطى ، والواقع أننا إنما نكتفي بأغراض أعيننا عن ضخامة المشكلات الجمالية في عصرنا واتساع نطاقها إذا اقتصرنا على تعريفها من خلال أرفع مظاهر الجهد الخلاق . أما كيفية المحافظة على هذا

الجهد الرفيع المستوى ، وتمييزه ، والملو به ، فسوف تكون تلك ، أو ينبغي أن تكون ،  
هى المشكلة التى يتعين أن يواجهها أولئك الذين يعملون على توجيه الجهد  
الجمالى ككل .

وعلى ذلك يمكننا القول ان المشكلات الجمالية هى بالفعل من المشكلات الكبرى  
فى عصرنا الحاضر . فعندما تصبح المشكلات الاقتصادية قابلة كلها للحل فان المشكلات  
الكبرى تصبح حتما مشكلات جمالية أو مشكلات قريبة منها قرابة وثيقة . وهذا فان  
هذه المشكلات ستصبح مشكلات سياسية ، على الرغم مما يبدو فى هذا القول من  
غرابة . ذلك لأنه لا نكاد نوجد قيم أخرى تستطيع الاضطلاع بهذا الدور ، ما لم يحدث  
احياء للقيم العليا والمشكلات الأقدم عهدا .

على أن هذا كله يبدو كما لو كان ينتمى الى المستقبل البعيد . وهذا بالفعل  
هو الخلق بأن يحدث لو أن ازدياد الاهتمام الجمالى قد انتظر حتى يتم حل آخر  
الصعوبات الاقتصادية . ولكن المشكلات الجمالية ، أو الجمالية السياسية ، تظهر  
- كما لاحظنا من قبل - بمجرد أن يصبح الرخاء الاقتصادى هو الشاغل الأول للجميع .  
وتصبح المشكلات الجمالية السياسية هى السائدة من حولنا بمجرد أن يحتج الجمهور  
الذى يرمى العروض الجمالية المقدمة اليه ، بصورة أو بأخرى ، قائلا أنه يريد شيئا  
آخر . فإذا ما أخذت هذه المشاكل ملحد الجد ، ألا يمكن أن يؤدي إلى قيام الحكومات  
وسقوطها ؟ ان عصرنا كهذا سيكون بالنسبة الى المفكر النظرى الجمالى أميبه بالوضع  
الراهن بالنسبة للمفكر النظرى الاقتصادى والاجتماعى الذى يطلبه إليه الجمهور فى  
الوقت الحالى أن يقدم المشورة فى حل تلك المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التى  
لا يمكن الاكتفاء بتركها لمشيشة النخبين المتقلبة . وعندما كان الدين هو المذهب  
المكانة العليا كان الجميع يطلبون الى رجل اللاهوت المساعدة على حل مشكلات كانت  
دينية حقا ، ولكنها كانت مع ذلك مشكلات دينية سياسية تهز الدنيا هزا . كمشكلة  
أولوية العقل أو النقل ، والحضور الحق ، وتماقيل الرسل ، والتفويض الالهى ،  
والخلاص بالأعمال ، وما الى ذلك . ولا شك أنه لو كان أى روماني يعيش فى القرن  
الأول الميلادى قد كتب بأن مشكلات المستقبل ستكون من هذا النوع الدينى السياسى  
لظنه الناس سخيوفا ، والواقع أن لنا الحق فى تأكيد التوازى بين تلك الحالة والموقف  
الراهن . فواجه النشاط الجمالية ، مهما اختلفت أنواعها ، قد أصبحت لها أهمية عظمى  
فى الوقت الراهن ، حتى لو كان رأينا هو أنها فى حالة يرثى لها . وهذا موقف تكمن  
فيه بذور أزمة ، وهو أيضا موقف لم يتأهب المفكرون الجماليون حتى الآن لتقديم النصح  
بشأنه . ولكن سيكون من الضروري التماس المشورة لديهم عاجلا أو آجلا . وستكون  
النتيجة هى سيطرة الاعتبارات الجمالية على شؤون الدولة ، سواء كانت هذه السيطرة  
خبرا أو سرا ، مثلما كانت الاعتبارات الدينية هى السيطرة فى الماضى ، ومثلما تسيطر  
عليها الاعتبارات الاقتصادية فى الحاضر والمستقبل .

ان مهمة كالفن ينبغي أن تقدم على الأقل ترويحاً للنفس من الملل . أما في أحسن حالاتها فانها تستطيع أن تقدم وسيلة لـه العالم المدرك ، عالم الزمان والمكان والخيال،

بطريقة تجمع بين الثراء والعصق . ولقد كشف الفنانون حتى الآن ، في أحيان معينة على الأقل ، عن موارد لاحد لها من أجل تلبية هذه الحاجة . ولكن حتى هذه الموارد يمكن أن تنفذ . ففي الوقت الراهن نجد أن الموضوعات التي طرقتها الأساطين القدماء وأساليبهم تعاد صياغتها بلا انقطاع في للموسيقى والأدب السائدين في صناعة الترويح عن الناس . فالفن في هذه الحالة فن جماهيري ، يكاد إنتاجه يكون جماهيرياً ، وأى محاولة للتصوير عن الاستياء والغفور في هذا الصدد لا تمس لب الموضوع . فالمسألة هي كيف يمكن الاحتفاظ ، خلال المستقبل الممتد الى غير حد ، بأي شيء يضارع في مستواه أعمال هؤلاء الأساطين القدماء . على أننا لامتلك صورة للفنان العظيم إلا على أنه فريق مؤلف من رجل واحد ، يسيطر شخصياً مسيطرة كاملة على المادة التي يصنعها . ولو كان الأمر متعلقاً بأي شيء آخر سوى الفن ، أي لو كان متعلقاً بأدوات نافعة مثلاً ، لأمكننا القول بأن تضامير الجهود على نحو مشابه لما كان متبعاً في تحصيل المعرفة المتعلقة بالعالم الطبيعي في القرن الماضي كفيلاً بأن يجعل جميع إنجازاتنا الجمالية حتى الآن تبدو ، على ضخامتها ، في بداية اتخاذاً أرسطو وليبتنز في ميدان العلم . ولكن الواقع أننا لانعرف أى قدر من المستوى الرفيع يمكن أن يظل باقياً اذا ما أصبحت الأعمال الجمالية تنتج بالجملة ، الا من خلال معامل السينما وصناعات التلفزيون . ومن الممكن أن تظل هذه الأعمال باقية على مستوى رفيع الى أبعد حد .

لقد كانت العصور القديمة تعزو المعرفة أو الحكمة المتعلقة بالطبيعة الى وحى خفي غيبي . واليوم حل فريق الباحثين في المسئل محل الحكماء أو صاحب البصيرة الذي يتميز بمبقرية الهية . ولكن الفن ما زال يعد ، الى حد بعيد ، نتاجاً لمبقرية غيبية . ولا شك أن هذه الفكرة بدورها مستخفي اذا استطاعت الجماليات أن تحدث في مجالها تحولاً مشابهاً لذلك الذي حدث في العلم في القرن السابع عشر . ولقد كان « كانت » هو الذي لاحظ - على الرغم من أنه كان يضع « نيوتن الذي لا يبارى » نصب عينيه - أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد شيء اسمه المبقري في العلم . فالمبقرية وقفت على الفنون ، التي لا يمكنها أن تفسر في طريقها بواسطة « وصلة » أو قاعدة أو حجة عقلية . وسواء كان « كانت » قد أصاب أو أخطأ فإن المسألة التي تواجهها هي هل نتسكن من الاستغناء عن المبقرية حتى في الفن ، ويظل لدينا مع ذلك فن . وربما يتبين في المستقبل أن الاجابة عن هذا السؤال مشابهة لما وجدناه في مجال الدين ، أعني أنه ستوجد مستويات متباينة أشد التباين ، تتفاوت بين المبقرية والدجل .

وهكذا ينبغي أن يكون من المسلم به أن سيادة الجماليات في المستقبل لن تأتي لنا أبداً بيوتوبياً جمالية . وهنا تخلف في الذهن حالة أخرى مشابهة . فقد أعرب جيبون في تاريخه ، وكذلك هيجل في ملاحظاته المبكرة عن المسيحية ، عن الرأي

القاتل بأن وصول المسيحية الى السيطرة السياسية والتنظيمية في العالم القديم لم يؤد الى زيادة كمالها ، بل أدى الى افسادها ، فاذا حدثت نتيجة مماثلة للجماليات فان مستواها وطايعها قد ينحط الى حد مؤسف ، وان كان العكس يظل ممكنا تماما . فالجتميع الذي تسوده الاعتبارات الجمالية يمكن بلاشك أن تنمو فيه كل ظواهر الشقاق والنزاع التي ظهرت في الثقافة المتجهة صوب القيم الدينية أو غيرها من القيم . كذلك فان الحساسية التي لا بد منها من أجل تفوق الفن تنوقا أصيلا يمكن أن تزيف كما زيفت الحساسية الدينية . والواقع أن من الممكن أن نجد أنفسنا ازاء نوع من الانتماء الشكلى الجاف للقضية جمالية معينة ، كانت هناك هيئة كنسية محكمة التنظيم في مقابل النزعة العاطفية الشخصية الحارة في مذهب القنوت *Pietism* ومذهب المنهجين *Methodism* . وهكذا فان المستقبل المتوقع إن يكون ورديا بالضرورة وانما هو مستقبل يقتضى أعلى قدر من الفهم الجمال . ولكن الأمانة الفكرية تمنعنا من القول بأن هذا الفهم يتمثل في وسائل الاعلام العامة التي تعمل على توصيل الانتاج الجمال وإبداعه في أيامنا هذه .

#### الكاتب : كارل آشپوز

وُلد في كاتسان بالولايات المتحدة عام ١٩١١ ، وحصل على شهادته الجامعية الأولى من كلية ريد عام ١٩٣٤ ، ثم قام بدراسات عليا في الفلسفة وطب الجمال وعلم النفس في جامعة كاليفورنيا في بركلي . وحصل على دكتوراه الفلسفة عام ١٩٤٠ . عين مديرا في كلية ريد من ١٩٤٠ الى ١٩٤٦ ، وبعد الحرب قام بتدريس الفلسفة في جامعة كاليفورنيا ، وقلب في مناصب التدريس المختلفة ثم أصبح استاذا ورئيسا للقسم من ١٩٦٠ الى ١٩٦٣ . وحصل على رتبة جوجنهايم (١٩٥٧ / ١٩٥٧) ولولبرايت (١٩٦٤/١٩٦٣) لدراسة علم الجمال في أوروبا . وفي عام ١٩٦٤/١٩٦٥ شغل منصب رئيس قسم التصميم بالنيابة في جامعة بركلي .

#### الترجم : د. فؤاد حسن زكريا

استاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة عين شمس - وهو رئيس تحرير مجلة « الفكر الماصر » . وله مؤلفات ومترجمات عديدة

بقلم  
بوريس كوزنيتسوف

ترجمة  
سمار جبران



## المقال في كلمات

ماهي العقلانية ؟ انها المذهب العقلي الذي لا يقبل الا ما يتطابق العقل الحر المطلق، وهي النزعة التي اعلنت سيادة العقل البشري وقدرته المطلقة ، وكان ليوناردو دافنشي الفنان العالم ( ١٤٥٢ - ١٥١٩ ) من اوائل الرواد العظماء لهذه النزعة . كان الموضوع الذي شغل الاهدان في ميلاد العلم الكلاسيكي هو البحث في التناسب الموضوعي ، والتناسق والنظام الموضوعيين في الكون ، بحثا عقليا منطقيا . كان الطريق الذي سلكه ليوناردو بحثا عن هذا التناسب هو علم تجريد الكون من التعريفات الكيفية كما تفعل الهندسة والحساب . انه كان أيضا يعني بالكيف الذي يتمثل فيه جمال الطبيعة وجلال الكون . وكان اول من وجد المعايير الجمالية مع المعايير المعرفية ، ومزج الفن والتكنولوجيا في اعماله ، وكانت فكرته التي سبق بها غيره هي ان الارتباط بين الحدث الفردي والكل هو ميسر الوجود الفيزيائي ، وكان التصبور عنده فرسا من الفلسفة ، ويتميز على الشعر بقدرته على رسم الأشياء والأحداث التي توجد معا في مكان ما . ولذلك فان الفرق بين عقلانية ليوناردو وعقلانية ديكارت ( ١٥٩٦ - ١٦٥٠ ) ان عقلانية ليوناردو تصويرية ، اما عقلانية ديكارت فانها كمية رياضية . والرياضة عند ليوناردو ليست تأملا في العالم الذي يعلو على الحس ، بل هي بحث عن الظاهر الهندسي للواقع . وكان الأسلوب الغالب على ليوناردو هو البحث عن المعرفة من خلال

الآلية ، ومن خلال التاليف التركيبي ، وتتل على هذا عبارته المشهورة « الميكانيكا  
جنة العلوم الرياضية » .

إن التصور الأساسي في العلم الكلاسيكي هو التمثيل التفاضلي للحركة . فالعلم  
الكلاسيكي يدرس الحركة بين نقطتين أو بين لحظتين من الزمن . أما الفيزياء الأرسطية  
فمبنية على افتراض ترتيب استاتيكي ساكن للمواضع الطبيعية . وهي لا تنظر إلى الحركة  
إلا من حيث نقط نهايتها . ونظريتها في الحركة لا تأخذ في اعتبارها المواضع النسبية  
للأجسام المتحركة عند كل نقطة بسيطة في مسارها . ومن جهة أخرى فإن العلم  
الكلاسيكي يتناول المواضع النسبية اللحظية ، التي لا تتغير في الحالة الخاصة لجسم  
منفرد لا تأثير عليه ، وأما في الحالة العامة فالتأثير المتبادل بين الأجسام يتمثل في  
المجلة التي تتناسب مع القوة المؤثرة . وهكذا فالتصورات الأساسية لدى العلم  
الكلاسيكي هي العلاقات النهائية بين المسافة المقطوعة والزمن المستغرق ، وبين السرعة  
والزمن ، وهذه تفقد معناها في غياب تصور متكامل عن الأجسام المتحركة . ولقد ظهر  
العلم الكلاسيكي عندما أصبح التفاضلي للحركة نسقا من القوانين التفاضلية ، ووجد  
صيغته الرياضية الرئيسية في حساب اللامتناهيات . ولقد كان يوجد من قبل تصور  
مبهم غير مكتمل لعادات موضعي متفرد ، أو حالة أو علاقة موضعية متفردة ، يمكن أن  
تخضع للتحليل الملمس إلى القدر الذي تكون به مشروطة بما يسبقها من علاقات وأحوالات  
أو أحداث ، وتكون هي نفسها متحركة فيما يعقبها منها . ولم يكن هذا التصور قد  
جرى ربطه بعد بدراسة الحركة ، بل كان أحيانا يطبق في مجالات شديدة البعد عن  
الميكانيكا ، في حين كان في أحيان أخرى يقترب كثيرا من الفيزياء والميكانيكا  
والرياضيات ، أي من أفكار العلم الكلاسيكي . وأقول إنه اقترب كثيرا ، لكنه لم يكن  
قد دخل بعد ضمن تلك الأفكار ، كان هذا هو فجر العلم الكلاسيكي .

وكان هذا أيضا هو فجر العقلانية الكلاسيكية التي أعلنت سيادة العقل البشري  
وقدرته المطلقة . كانت النزعات العقلانية خلال عصر النهضة سمة للعديد من الحركات  
الفلسفية التي افرقت بعضها عن بعض كثيرا من حيث مضمونها ، وأصولها ، وتطورها  
اللاحق . على أن هناك فكرة مشتركة يمكن تمييزها في هذا الصدد ، يجوز أن نطلق  
عليها اسم النزعة العقلانية ، أو فجر العقلانية الكلاسيكية ، أو حتى عقلانية عصر  
النهضة . فالمسألة هي أن عقلانية القرن السابع عشر الكلاسيكية توجد تحت اسم  
واحد بعض التصورات الشديدة الاختلاف فيما بينها ، والتي تصل إلى حد التعارض  
من وجوه عدة . فعقلانية « سبينوزا » تختلف عن عقلانية « ديكارت » إلى حد يزيد  
عن اختلاف أي منها عن الأفكار العقلية لعصر النهضة . وهذا ما يبيح لنا التوسيع  
في لفظة « عقلانية » بحيث تشمل على أفكار ليوناردو دافنشي .

ان البحث عن تناسب موضوعي ، وانسجام ونظام موضوعيين ، ومتشبا للكون ، وعن ذلك الذي يحيل العماء الى كون منظم ، كان يلعب دورا عظيم الشأن في ميلاد العلم الكلاسيكي . فالتفكير البشري كان يوجه لنفسه دائما ذلك السؤال الذي عبر عنه « أينشتاين » بوضوح شديد حين قال : « ان أكثر ما يستغرق على الفهم عن الكون هو قابليته للفهم » .

فلماذا هو قابل للفهم ، ولماذا هو يخضع للتحليل المنطقي ؟ هذا السؤال بعينه هو الذي قاد التفكير العلمي بعيدا عن العالم التجريبي للوقائع المتفرقة وعن المسالم القبلي للتجريدات اللامادية . وعلى هذا الطريق تصير العقلانية علما . أما في الحقبة التي تمنينا فهي تصبح علما كلاسيكيا . وأما العقلانية التي تبحث عن مقولية موضوعية في الكون ، والتي تفسر لنا السبب في أن العالم يفتح أمام المعرفة العقلية والمنطقية ، والسبب في أن « الله بارع لكنه ليس مأكرا » ( حسب تصوير آخرس لأينشتاين ) ، هذه العقلانية أصبحت متضمنة في التصور التفاضلي للحركة . وعلى ذلك فان من أشد الأسئلة أهمية بالنسبة لنشأة العلم الكلاسيكي ، ولو أنه سؤال خاص ، هو : ما السبب في أن الكون يخضع للتفكير الرياضي ؟

في القرن السادس عشر رأى « جورداو برونو » في الجزئي انعكاسا للعام ، انعكاسا للروح اللانهائية للكون . والجزئي يصبح لامتناهيا في الصغر عندهم يضاهي بالكلّي اللامتناهي في العظم ، ولكن الجزئي لا يخفى بل يحتفظ بما فيه من واقعية ، بل ان واقعيته تزداد لكونه معبرا عن الطبيعة اللانهائية أي عن « العقل » الكامن فيها ، وعن « روحها » ( ونحن هنا نحمل معنى جديدا على لفظ قديم ) ، فالجزئي يكتسب واقعية أن يصبح عنصرا في عملية منظمة ، اذ ان الوجود الموضوعي حقيقي لأنه يتميز بعدد لانهائي من تطبيقات القانون الكوني ، وهذا القانون يكتسب معنى ماديا عندهم يتحقق في علاقات موضوعية لامتناهية في الصغر ، أي عندهم يصبح قانونا تفاضليا .

هذا هو آخر طريق سلكه القرن السابع عشر من أجل فهم « التناسب » Ratio وهو طريق مكافئ لذلك الذي سار فيه برونو في القرن السادس عشر .

فماذا كانت مقبماة ؟ وما هو السبيل الذي اتخذه ليوناردو بحثا عن التناسب في القرن الخامس عشر ؟

يقول « بول فاليري » في مقاله الرائع « ليوناردو دافنتشي والفلسفة » ( ١٩٢٩ ) : ان المفهوم المحلى الصرف لمعايير العلم يقف مضادا للجمال ، الذي يستقل عن الزمان والمكان والمعايير المحلية ( ١ ) . ولقد انتقل هذا المعيار الجمالي الى العلم ، فأصبح ثبات

( ١ ) بول فاليري ، « ليوناردو دافنتشي والفلسفة » ، مقالات مختلة عن ليوناردو دافنتشي ، باريس ١٩٢٨ ، ص ١٢٧ - ٢١٨ .

الجمال هو ثبات الحقيقة وثبات القوانين العامة • والجمال عند ليوناردو قوامه امتداد الفرد وتطوره إلى نطاق الكلي ، وهو نمو مكاني وزماني • بل إن الأقرب إلى فكر ليوناردو أنه رأى في هذا النمو المكاني الزماني للفرد شيئاً مشتركاً بين الفن والعلم •

إن فيزياء ليوناردو هي فيزياء كيفية ، فهي لا تجرد الكون من التمرينات الكيفية كما تفعل الهندسة والحساب اللذان « يقفان عند حد معرفة المقادير المتصلة والمنفصلة ، وليساً معنيين بالكيف الذي ينحصر فيه جمال أعمال الطبيعة وجمال الكون » (١) •

وكان تقويم الرياضة وثيق الرباط بالطابع المميز للنزعة العقلانية • ذلك لأن النزعة العقلية القبلية كانت قد أدت إلى تصور الرياضة على أنها إطار يملو على الحس ويسبق الوجود المادي • أما النزعة العقلانية التي أدت إلى العلم الكلاسيكي فقد رأت في الوجود المادي وفي حركة الجسيمات نموذجاً أصلياً حقيقياً للتحليل الرياضي • ولقد كان ليوناردو من مثلي تلك النزعة التي كانت ترون إلى المستقبل ، وإلى العلم الكلاسيكي ، والتصور التفاضلي للحركة • فالرياضة عند ليوناردو ، فيما يقول « ج. دي سانتيانا » ، « ليست تأملاً في العالم الذي يملو على الحس ، بل هي بحث عن الإطار الهندسي للواقع » •

تري ماهي الصلة بين فيزياء ليوناردو وفيزياء ديكارت ؟ يقول بول فاليري عن كلمات ليوناردو : « الميكانيكا هي جنة العلوم الرياضية » ، إنها تعبر عن فكر ديكارتي صرف • وفي رأي فاليري أن ليوناردو يعبر عن فكرة الحيونات الآلية بطريقة أكثر جلاء ووضوحاً من ديكارت : « فالبحت عن المعرفة من خلال الآلية ومن خلال التأليف التركيبي كان غلباً عند ليوناردو » (٢) • والواقع أن ليوناردو يرتبط بالفعل مع ديكارت بروابط تعاقب مباشرة ، ولكن هذا ليس مبعث تشابههما فحسب ، بل هو كذلك مبعث اختلافهما أيضاً ، لأن التعاقب هنا أمر تاريخي ، وكل من المفكرين يحتفظ بفردانيته التاريخية • فعقلانية ليوناردو ، التي كانت أسبق عهداً ، بما يصحبها من نزعة حسية ، تؤدي إلى تفسير ميكانيكي ، لكن هذه الميكانيكا ليست الميكانيكا الديكارتية الهندسية المتعلقة بأجسام متجانسة لا يمكن تمييزها عن مواضعها المكانية ، وإنما هي ميكانيكا أجسام متباينة ذات فروق كيفية •

وهكذا ، فإن تصوير ليوناردو عندما ينقلب إلى : ميكانيكا ، وفيزياء ، وفلسفة ، وعندما يصبح معرفة بالكون وبما فيه من تناسب ، لا يكف مع ذلك عن أن يكون تصويراً • « إن ليوناردو مصور : بل أقول إن التصوير هو فلسفته ... فهو يعتبره الهندس الأسمى لجهود عقل كلي شامل » (٣) •

(١) بحث في الرسم ، ١٧ •

(٢) ج. دي سانتيانا ، « ليوناردو والذين لم يقرأ لهم » ، ليوناردو دافينشي والتجربة العلمية في القرن السادس عشر ، باريس ١٩٥٢ ، ص (٤٤) •

(٣) مقالات مخطئة ، ص ١٥٢ - ١٥٣ •



ان محاولة ليوناردو لرؤية كلية الوجود المتعددة الألوان مع الاحتفاظ بكل ما لها من صفات كيفية أدت بكثير من الناس الى تشبيه نظريته للعالم بنظرة « جوتة » له . فقد قال « كاسيرر » : « ان حدود الرؤية » بالنسبة لليوناردو ، كما هي بالنسبة لجوته ، هي حدود الانجاز، وهكذا فإن العالم الذى يستطيع استيعابه بوصفه فنانا وباحثا هو دائما علم الأَبصار ، ولكن هذا العالم لابد أن يمثل أمامه ، لآظاهرة منقسمة مجزأة، بل بكل ما فيه من امتلاء منظم » (١) .

لكن هل حقا كانت حدود الرؤية هي حدود الانجاز عند ليوناردو ؟ انها بالتأكيد لم تكن حدودا بالقدر الذى كانت به عند جوته ، ذلك لأن الأساليب الميكانيكية والرياضية لمعرفة الطبيعة كانت متضمنة في انجاز ليوناردو (٢) . فدعوة الرؤية *Visibilem* عند جوته هي احتياج على عمومية المعرفة للميكانيكية والرياضية ، على حين أن هذه النزعة عند « ابصار » ليوناردو هي يعينها فجر هذا النوع من المعرفة، في مرحلة كان فيها لا يزال غير مكتمل المعالم ، ولا يزال يحتفظ بقدر من الاختلافات والتمايزات الكيفية ، ولم يكن العلم الجديد بعد قد أضاف إليها صورة العالم ذات المسحة الواحدة عند « ديكارت » ولا بناء « نيوتن » الذى كان أشد إيفالا في بساطته الواحدة .

ان عقلانية ليوناردو السابقة على ديكارت كانت تفتقر الى المعيار المعرفى الانسانى عند ديكارت ، وهو معيار الوضوح . وكان معنى هذا المعيار في القرن السابع عشر أن موضوعات المعرفة يمكن أن يعبر عنها تعبيرا لفظيا (وعلى وجه الخصوص تعبيرا رياضيا رمزيا ) بأى درجة مرغوبة من الوضوح ، فإذا نحن لم نكتف بالإشارة الى موضوع أو احصى خصائصه ، بل ذكرنا اسمه أيضا ، فإن الموضوع أو الخاصة يفقدان فردانيتهما، ويصبحان موضوعين لذلك التفكير الذى يعنى بالتصنيفات والمفاهيم . أما فى الفلسفة العقلانية ، فى القرنين ١٧ و ١٨ بصفة عامة ، فانهما لا يفقدان فردانيتهما فحسب ، بل يفقدان لونهما أيضا ، وهكذا فإن ليوناردو يحتفظ بالألوان ، فالتصوير قد أصبح فلسفة بالنسبة له ، دون أن يكف عن أن يكون تصويرا . لكن كيف يتسنى للمرء عندئذ أن يتجاوز حدود ما هو فرداني ؟

يستبدل ليوناردو معيار التمييز بمعيار الوضوح ، أو قل انه لا يستبدله به ، بل يستتبعه : فمعيار التمييز يسبق معيار الوضوح . والعقل هنا يعمل من خلال تحديدات كيفية ، وتعتمد قدرته المعرفية على ادراك الفروق الطفيفة بين الدرجات الكيفية . ولكن نوضح هذه النقطة نقول : ان العقل هو الذى يعمل من خلال التحديدات الكيفية . فمن

(١) ١ . كاسيرر ، « الفرد والفن فى فلسفة عصر النهضة » . . ليجر - برلين ١٩٢٧ ص ١٦٧ .

(٢) نربودنى ، عقل ليوناردو ، فلورنسا ١٩٥٢ ص ١٥٢ - ١٥٤  
 . . جوبوف ، ليوناردو دافنتشى ، موسكو ١٩٦١ ص ٢٠٤

الواجب هنا أن لاتدع العقلانية الكمية الرياضية عند ديكارت تحجب النزعات العقلية الكيفية عند ليوناردو الذى بات التميز فى الدرجة عنده أداة من أدوات العقل . ان ليوناردو بوصفه فنانا يستختم درجات فى غاية الرفافة . وكانت مثل هذه الدقة ذات أهمية حيوية بالفلسفة له . وهو نفسه يقول ان عقل المصور مثل المرأة ، فهو يتحول الى عدد من الألوان بقدر ما يوجد منها فى الأشياء التى أمامه (١) . ولكن ما المفروض أن يعبر عنه الفنان بمساعدة هذا العدد غير المحدود من الدرجات اللونية الدقيقة ؟

هنا نصل الى المهمة الرئيسية لتساوير ليوناردو ( التى كانت بالنسبة له المهمة الرئيسية للفلسفة ) ، وأعنى بها تجاوز حدود الجزئى ، وجعل الجزئى عنصرا من عنصر الكلى . ان هذه المهمة ترغوا الى المستقبل ، الى القرن السابع عشر ، وإلى العلم الكلاسيكى ، لأن عملية التوسع فى الجزئى أبعاد ما تكون عن ادراجه منطقيا داخل نسق قهلى متكامل : اذ أن العملية الأولى تتم فى الزمان والمكان ، ومن ثم ففى تجميع منطقى يصبح تجميعا مكانيا زمانيا ، وتصبح الوحدة داخل التباين حالة من حالات الهوية فى حضور محمولات مكانية زمانية متباينة . فالوحدة الحقيقية داخل التباين والتنوع هى هوية جسم مع ذاته ، حيث يكون ذا محمولات مكانية زمانية متباينة . والأحداث المتفردة تناظر وجود جسم ما فى أماكن مختلفة فى لحظات مختلفة ، وهويته الذاتية تضمنها له استمرار هذه السلسلة من المواضع والملاحظات ، أى استمرار حركة الجسم . وهكذا نرى خطأ من التعاقب بين التجميع المكانى الزمانى لما هو متفرد وبين التصور التفاضلى للحركة ، أو العلم الكلاسيكى ، وهو خطأ ان لم يكن مباشرا فهو على الأقل موصول غير متقطع .

لقد كان ليوناردو يرى أن ميزة التصوير على الشعر كانت هى قدرته على رسم الأشياء والأحداث التى توجد معا فى المكان . وليست المسألة هنا مجرد جمع بسين أشياء تحتل مواضع مختلفة على لوحة واحدة ، اذ أن أسلوب التلوين بأسره ، والعمق ، والخلفية ، والفاتح والغامق ، وتصوير المناطق الشفافة ونصف الشفافة ، كل ذلك يكشف حتما عن الرابطة بين الفردى والتنوع المكانى . لكن ليوناردو يذهب الى أبعاد من ذلك ، فهو يريد للتصوير أن ينتقل من المتفرد والحسى ، والفردى الى التنوع الزمانى . وهذه النقطة هى التى تفتح باب التناصب الموضوعى فى الكون .

ان التصوير عند ليوناردو ضرب من الفلسفة ، لأنه « يتناول حركة الأجسام وسرعة حركتها ، فى الوقت الذى تعنى فيه الفلسفة أيضا بالحركة » (٢) ، بل إنه ليلعب الى أبعاد من ذلك ، فىرى أن التصوير والفلسفة يتخذان معا من التغير فى الحركة ، أى العجلة ، موضوعا لهما . وقد مضى على ذلك قرن ونصف قرن بأكملهما قبل أن تصبح العجلة من العمليات الأساسية فى العالم ، على حين كان ينظر الى السرعة على أنها حالة

(١) بحث فى الرسم ص ٥٦ و ٥٨ .

(٢) بحث فى الرسم ص ٩ و ١٠ .

من الثبات • وانه لمن الواضح أن رسم ليوناردو ليس مكونيا مستاتيكيًا، بل كان متحركا ديناميا • لكن دينامية ليوناردو لاتتمثل فقط في عمله وممارسته كمشور ، بل تتمثل أيضا في كتابه « بحث في التصوير » حيث يقول : « ان التصوير ضرب من الفلسفة ، لان الفلسفة تتناول الحركة المتزايدة والمتناقصة » (١) •

ويقارن « ف • جوبوف » موقف ليوناردو بموقف « ليسننج » (٢) • ذلك لأن ليسننج يقول في كتابه « لاوكون Laocoon » ان المصور يلتقط من بين تنابع اللحظات لحظة واحدة وينبتها • أما ليوناردو فيرى أن مهمة التصوير ( والفلسفة ) هي الاساك بعملية دينامية لابلحظة سكونية •

ويقول جوبوف عن موقف ليوناردو : « لنجعل الأمر مرة أخرى : ان كلمة « لحظيا » ، أو « في لحظة واحدة » ، أو « في اللحظة نفسها » ، أو « في لحظة خاطفة » ، كل ذلك لايعبر عن لحظة انتزعت من مجرى الزمان • بل ان كلمة « لحظيا » هنا هي تلك التي تفترض أن هناك « قبل » و « بعد » ، أي أنها تنظر للزمان على أنه وسيلة للاسك بالسيال الحي للواقع • فالحياة آخر الأمر ليست ممكنة الا حيث يوجد « قبل » و « بعد » ، وحيث توجد رابطة بين « القبل » و « البعد » ، وبعبارة أخرى ليس الزمان هادما للأشياء فحسب ، بل هو أيضا شرط ضروري لحياتها الحقيقية » (٣) •

فلنحاول ترجمة هذا التصور الى لغة العلم الحديث • وليس هدفنا من ذلك هو أن نرقب ليوناردو من العلم الحديث ونجعل منه « رائدا » آخر ، بل ان من الضروري ، لكي نحدد ما ينفرد به ليوناردو تاريخيا ، أن نطبق عليه هو نفسه معيار الارتباط بين « القبل » و « البعد » • فالزمان من حيث هو شرط للحياة الحقيقية للأشياء • تعبر عنه استحالة وجود الأشياء وجودا حقيقيا خارج روابطها بالعلاقات الكلية الشاملة ، التي تحدد مسلك كل من هذه الأشياء • وهذه العلاقة المتبادلة تعبر عنها بالنسبة لكل جسم القوى المؤثرة عليه ، وأما مسئلة فتعبر عنه سرعته وسجلته في لحظة معينة • ولقد اكتسبت مثل هذه الفكرة شكلها الكلاسيكي على هيئة علاقات ميكانيكية وهندسية متبادلة ، وأصبحت ميكانيكا « لاجرانج » هي التعبير الكلاسيكي عن هذه النظرة الى العالم • لكن لا ينبغي أن نهبط بالفروق بين ليوناردو والشكل الكلاسيكي الى مستوى التعريف السلبى •

فبالنسبة لليوناردو فان الفكرة القائلة بأن الارتباط بين الحدث الفردى وبين الكلى هو معيار الوجود الفيزيائى لهذا الحدث لم تكن قد أخذت هذا الشكل المجرد

(٢) بحث في الرسم ص ٩ ، ١

(٢) ف. جوبوف ، المرجع السابق ، ص ٢٢٠

(٣) للرجوع السابق ، ص ٢٢٢

والدقيق . فتصوره كان استيقافا مبكرا ، لا لعلم القرن الثامن عشر فحسب ، بل كذلك للعلم الكلاسيكي التالي . ففي القرن التاسع عشر اكتسبت الميكانيكا المجردة عند « لاجرانج » مكافئا أكثر عينية في تصور المجال . وعلى ذلك فلا ينبغي للمرء أن يكتفى بالتقريب بين أفكار ليوناردو وبين الأطار الميكانيكي الهندسي ، إذ ليس هذا الأطار ، بل فكرة أوسع منه ، هو أكثر الملامح تمييزا للعلم الكلاسيكي . هذه الفكرة تنحصر في الرابطة التي يمكن فهمها فيزيائيا بين جسم منفرد والأجسام الأخرى ، وهي رابطة تعدد مسلك الجسم بناء على قوانين تفاضلية ، ولو مضيا أبعد من ذلك في تفسير فكرة ليوناردو التي عبر عنها بقوله : « فلسفة تعالج التغيرات في الحركة » لوصلنا إلى مفهوم المجال الذي يحدد مسلك أي جسم ، ومثل هذا المعنى يرتبط بالأصل التاريخي لفكرة المجال .

يقول بول فاليري في كتابه « مدخل إلى منهج ليوناردو دافنشي » (١٨٩٤) : ان التفسير عند ليوناردو لم يكن قد بلغ بعد مرتبة القياس ، لكنه افترض وجود رابطة عينية مادية بين الظواهر . ثم يستطرد قائلا : « يهيئ أن هذا المنهج أخفق لمدة ثلاثة قرون بعد موت ليوناردو في الحصول على اعتراف به ، مع أن الجميع قد استغنوه » (١) . ويمضي فاليري في كلامه قائلا ان القوى المؤثرة عن بعد لا تتناسب مع هذا الافتراض في العلم الكلاسيكي ، ولقد أعطيت هذه القوى شكلا تحليليا ، لكن نيوتن أدرك عدم كفاية تصور التأثير عن بعد بوصفه تفسيراً للظواهر المشاهدة .

ويستطيع المرء أن يفسيف إلى ذلك أن التأثيرات المتبادلة اللحظية ، ومن ثم تصور التزامن المطلق ، كان يناقض المثل الأعلى للعلم الكلاسيكي ، أي تفسير الظواهر من خلال التأثيرات المتبادلة ، لا في المكان فحسب ، بل كذلك في الزمان أيضا . ويقول فاليري : « ان فاراداي هو الوحيد الذي عاد إلى مقياس التمثيل الفيزيائي لهذه التأثيرات المتبادلة » ، لقد وقعت على عاتق فاراداي مهمة إعادة منهج ليوناردو إلى الفيزياء مرة أخرى (٢) .

وفي هذا الصدد يقتبس فاليري هذه السطور الشهيرة من مقدمة ماكسويل لكتاب « بحث في الكهرباء والمغناطيسية » : « لقد كان فاراداي يرى بعين العقل خطوط القوى وهي تخترق الفضاء بأسره ، بدلا من مراكز القوة التي تقرم بالجلب عن البعد والتي ركأ عليها الرياضة ، أي أن فاراداي كان يرى وسيطا حيث راوا هم مسافة فحسب (٣) » . لكن لو اعتبرنا ليوناردو « مبشرا » بفاراداي لكان في ذلك فقدان للاساس بالتفرد التاريخي للإحداث في تاريخ العلم ، بل لكان فيه أيضا فقدان المرء

(١) بول فاليري ، المرجع السابق ص ١١٢

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٢

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٢ .

لاحساسه بالتناسب • لذلك فإن مقارنة فاليري بينهما لها معنى مختلف تماما • وهذا المعنى يزداد وضوحا اذا رجعنا مرة أخرى الى تطور العقلانية •

إن العقل الذى يستطيع ادراك التناسب الموضوعى فى العالم لا يمكنه أن يقتصر على الأشياء الفردية ، ولقد قال أرسطو : « لو لم يكن يوجد شيء بخلاف الجزئيات ، لما أمكن للعقل أن يدرك شيئا ، لكان كل شيء مجرد موضوع للاحساس ، ولما كانت هناك علوم ، إلا اذا زعم أحدهم أن الاحساس علم (١) » •

ولقد تحقق الانتقال من الجزئى الى العام فى صورة هندسية مجردة كثيرا ما صيغت بصيغة مطلقة عن طريق اضافة معنى قبلى على التصورات المجردة • وفى الوقت نفسه سعى التفكير العلمى الفلسفى الى ايجاد ميكانيزم - يمكن تمثيله - للتأثير المتبادل بين الأجسام المنفردة ، أى ميكانيزم يحل أوجه شبه مع عمليات يمكن ادراكها بالحوس • سواء كانت أوجه الشبه هذه مباشرة كما هى الحال عند فارادى ، أو مقروطة كما هى الحال عند ماكسويل • ولقد كان تصور المجال للمادى فى أعمال فارادى وماكسويل ، بمعنى ما ، مركبا يجمع بين طبيعة النموذج وطبيعة التصور المجرد •

إن بعض الفروض المنطقية والفلسفية من الجانب الحسن « التأثر بفكرة النموذج » للتفكير العقلانى فى القرن ١٨ ، ١٩ ( وهو جانب يمكننا التعبير عنه بصورة أقوى فسيحية « العنصر » الحسى فى ذلك التفكير ) كانت ترجع الى تراث يمتد حتى عصر النهضة ، فى حين « لم يكن التعبير قد أصبح قياسا بعد فيما يقول فاليري ، بل انه يمتد الى أبعد من ذلك ، الى الاسمين فى القرن ١٤ ، بل أبعد من ذلك أيضا • لكن القرن الرابع عشر قد حول مجرى ضيقا الى نهر واسع • فالن والتكنولوجيا فى عصر النهضة جعلتا أفكار الناس عن الطبيعة أكثر موضوعية ، ووضوحا • وتلونا ، وأقرب الى الذوق الجديد ، وتخلصا من بعض الأقيسة التقليدية • وفى أعمال ليوناردو امتزج الفن والتكنولوجيا بدفاع صريح عن الصور الميئية بوصفها منهجا للمعرفة العقلية بالكون • ومن الممكن فى عصرنا أن ترى بمزيد من الوضوح والعق « الروابط » المنطقية والخطوات التاريخية التى تربط أفكار الماضى بأحداث أفكار الحاضر ، وأن ترى فى هذه الأفكار أسئلة موجهة الى المستقبل ، بعضها لم يجد بعد جوابا • فالمشكلة الرئيسية للفيزياء النظرية فى عصرنا هى مشكلة وجود الجسيمات الأولية • فلنحاول أن نحدد بمزيد من الدقة المعنى المبنى ، الحديث ، الخاص - أعنى الخاص بالنسبة الى النصف الثانى من القرن العشرين - الذى أعطى لهذا التصور الشديد العمومية فى الفلسفة ، والذي ربما كان أهم التصورات كلها •

لذا نعرف قدرنا لا بأس به من المعلومات عن ممتلك الجسيمات الأولية فى المجالات المكانية الزمانية الكبيرة نسبيا (بالمقارنة بالقياس تحت النوى مثل ١٠-١٣ سم و ١٠-٢٤

ثانية ) • هذا المسلك - أي الموضع ، والسرعة ، والمجلة - ترسمه لنا خطوط المجال الخاصة بهذه الجسيمات ، لكننا لا نكاد نعرف شيئا عن طبيعة بعض خواص هذه الجسيمات مثل كتلتها وشحنتها ، مع أن هذه الخصائص هي التي تميز أحد أنواع الجسيمات عن الآخر • وعلاوة على ذلك فإن هذه الخصائص هي التي تميز المادة ( أي ما يسميه ديومقريطس « بالوجود » ) عن المكان ( أي ما يسميه ديومقريطس « باللاوجود » ) • ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن الفرق القائم بين خطوط المجال وصورتها الهندسية ، أو بين جسيم وتحديد موضعه من حيث الأبعاد الأربعة ، هو نتيجة عملية التحويل التي تحيل الجسيمات من نوع ما إلى جسيمات من نوع آخر في خلايا مكانية زمانية على مستوى ١٠-١٣ سم و ١٠-٢٤ ثانية • لكننا نصادف هنا موقفا شديدا الغرابة • فمسلك الجسيمات الأولية على المستوى الكبير يفقد معناه الفيزيائي ( ولا يمكن الوقوف عليه تجريبيا ) ما لم تكن هناك تحولات على المستوى الميكروسكوبي المصغر • لكن هذه الأخيرة تفقد معناها الفيزيائي إن لم يكن هناك مسلك على المستوى الكبير ، لأن التغير في نوع الجسيم ، بل نوعه نفسه ، لا يمكن تحديده إلا بصورة خطوط مجال هذا الجسيم • فالتغير في نوع الجسيم ، أو التحول ، عبارة عن نقلة من خط مجال ممكن إلى آخر ، وهكذا فإن التكامل بين التحولات الموضعية وخطوط المجال على المستوى الكبير هي مشكل جديد للتكامل القديم بين الفردي والكلّي • لقد نسب العلم الكلاسيكي حركة كائنة وسرعة وعجلة إلى الجسيم عند نقطة معينة ، محلدا حركته بنقطة ، ومن ثم كان يحصل على قيم نهائية ، ويربطها بالتأثير المتبادل بين الجسيمات ومجالات القوى • وقد استوعب العلم هذا النهج في القرن ١٧ ، أما في القرن السابق عليه فقد رأى « جوردانو برونو » أن الوجود الحقيقي للجزئي هو انعكاس للسكون اللامتناهي ، وفي القرن ١٥ وحد ليوناردو المعايير الجمالية مع المعايير المعرفية ، فأعطى للجزئي طاقة تدفعه للخروج إلى نطاق الكلّي ، أي إلى التنوع المكاني والزماني •

الكاتب : بوريس جريجوريفتش كوليتشوف

ولد عام ١٩٠٣ • دكتوراه في العلوم الاقتصادية ، استاذ  
بمعهد العلوم الطبيعية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية  
بالاتحاد السوفيتي • وأهم مؤلفاته : « اثنتان » ، و « جاليليو »  
و « مشكلات نظرية النسبية » •

للترجم : الاستاذ سمير جبران

ليسانس الآداب من قسم الفلسفة

بتسلم  
آدم شاف

ترجمة  
فؤاد أندراوس

# الوقائع التاريخية والاختيارها...

## المقال في كلمات

ان الوقائع التاريخية لاخلاف فيها بين المؤرخين اذا كان لها وجود فعلي ، وينحصر الخلاف بينهم في تاويلها . وتختلف وجهات النظر بتباين المفاهيم التي تتطور بدورها بتطور المعرفة الانسانية . ولكن ماهي الواقعة التاريخية ؟ ان كل ما حدث في الماضي لايعتبر وقائع تاريخية ، فالوقائع التاريخية هي تلك الوقائع التي لها أهمية تاريخية . والفرق بين الوقائع العادية والتاريخية ان العادية وقائع مرت مر الكرام وتوارت في خضم الأيام ، اما الوقائع التاريخية فهي وقائع ذات ثقل وتأثير ايجابي في مجريات الأمور . ولكن هل الواقعة التاريخية بسيطة ام مركبة ؟ ان الوقائع التاريخية ، وان كانت في ظاهرها بسيطة ، الا انها معقدة للغاية ، اذ ترتبط بأسباب ومقدمات وأحداث ونتائج . والواقعة التاريخية في نظر « بيكر » ليست الحدث نفسه الذي قد زال ، بل هي رمز يبعث في خيالنا صورة الحدث . وقد أثارت هذه النظرية جدلا واسع المدى بين علماء التاريخ ، اذ انهم يرون في الحدث مكونا من مكونات الماضي مرتبطا بالواقع بغيوط لاصح لها . ودور المؤرخ حيال تحليل الأحداث دور ناظم العقد ينقله طبقا لهدف الذي يسعى اليه . فالحدث نفسه والوقائع نفسها لا نقول شيئا ، ولا تفرض دلالة . اما الذي يتكلم هو المؤرخ ، وهو الذي يفرض الدلالة . ولكن كيف يتخير المؤرخ الوقائع التاريخية من بين الكثير من الاحداث مما لم يدخله المؤرخ في

حسابه ؟ ان المؤرخ يختار ، على أساس غرض معين أو نظرية ما ، الأحداث التي ترتفع الى مقام الوقائع التاريخية . وهذا هو السبب في ان واقعة ما فزلت الى مقام الواقعة التاريخية في وقت ما ، أو بواسطة مؤرخين ينتمون لمدرسة ما ، وان تكن هذه الواقعة قد تفوض عنها في وقت آخر ، أو بواسطة مدرسة أخرى . ولذلك فان اختيار الوقائع يتوقف على الخلق التاريخي الذي يقوم به المؤرخ للنظرية التي يعلنها .

« ليست الوقائع في حقيقتها كالمسك على لوحة بائع السمك . انما هي أشبه بالسمك السابح في محيط هائل ، محيط بعيد المنال أحيانا ، وما يصيده المؤرخ منه يتوقف الى حد ما على الصدفة ، ولكنه يتوقف قبل كل شيء على ذلك القسم من المحيط الذي اختار الصيد فيه ، كما يتوقف على الطعم الذي يستعمله في الصيد . »

وهذان العاملان يحددان بالطبع نوع السمك الذي ينوي صيده . ويمكن القول على العموم بأن المؤرخ سيجد نوع الوقائع التي ينشدها .

#### ١ . هـ . كار « ماهو التاريخ ؟ »

من الطبيعي أن نبداً تأملاتنا في موضوعية الحقيقة التاريخية بالبحث في الواقعة التاريخية . وربما كان السبب الوحيد لهذه البداية أننا على العموم نرى - وهو رأى له ما يبرره من بعض النواحي - أن الخلافات بين المؤرخين لا تظهر الا منذ اللحظة التي يتناولون فيها تفسير الوقائع ، ذلك لأن ببيان هذه الوقائع متماثل ، اذا افترضنا توفر مستوى معين من المعرفة والتقنية في البحث . أما وقد قررنا هذا فليس من الضروري أن نمضي الى المدى الذي مضت اليه مدرسة رانكي ، ونطلب أن تقتصر مهمة المؤرخ على عرض الوقائع « البحث » دون تفسير أو تعليق ، ويكفي أن نقول اننا حين نستعمل لفظ « الواقعة » في سياق علمي أو تاريخي ، فاننا نمبر في غير لبس ولا غموض ، وأنه - بالتالي - اذا أثبت انسان واقعة تاريخية بطريقة وافية فانه يثبتها لصالح جميع من تمنيم هذه الواقعة ، فالوقائع التاريخية باعتبارها منتجات ، وكذلك البحوث التي يقوم بها الباحثون لاثباتها ، لاتأثر اذن بـ « العامل الذاتي » في عملية اكتساب المعرفة ، سواء بمعناها الخاص أو بالمعنى الاجتماعي .

وستستيق حججنا الأخرى وتبادر بالقول من الآن اننا لو عارضنا وجهة النظر هذه باعتبارها بدائية لوجدنا أنفسنا نقف موقف الفيزيائي الذي يجري بحوثه مبتدئا من الميكانيكا الكمية ، ومن ثم فهو يعتبر ذلك الانسان الذي لايعتمد - في عصرنا هذا -



الا على مجموعة المفاهيم التي ينتظمها النسق النيوتيني دون غيرها أداة له في بحثه - تقول انه لاحالة يعتبره بذاتيا وغير كنه علميا . أو - بعبارة أكثر وضوحا من هذا - اننا نقف موقف الفيزيائي الملم الماما كاملا بما حققه الانسان في هذا العصر من معرفة ببناء الذرة ، الذي عليه ان يبني رأيا في الكفاية العلمية لأولئك الذين يريدون حتى في يومنا هذا أن يطبقوا في البحث مجموعة المفاهيم التي كان يستخدمها باحث الذرة في القرن التاسع عشر ، والذي يرى - كما رأى القنماء من قبل - أن الذرة اصغر جسيم في المادة ، وأنها غير قابلة للانقسام ، وأنها في شكلها أشبه ماتكون بكرة المطاط الصغيرة . هذه الفكرة بالطبع بدائية ان وجدت ، وهي دليل على عدم الكفاية وعلى الجهل بالفيزياء الحديثة ، ولكنها لن تكون خطأ خالصا مطلقا ، ففي ظروف معينة يجوز للمرء ، ولا بد له ، استعمال النسق النيوتيني ، ونظرية دالتون الذرية تتضمن عناصر صحيحة إلى حد ما ، ونحن اذا قسناها بمقاييس العلم الجديد لم نجد لها « أقدم » جدا من غيرها من النماذج الأكثر تطورا وصحة كنظرية رذرفورد مثلا . ومرد هذا حقيقة معروفة ، وهي أن عملية اكتساب المعرفة لانهاية لها ، وأن أي حقيقة يتوصل اليها أثناء هذه العملية في لحظة ما إنما هي حقيقة جزئية ، وهي بهذا المعنى نسبية ، ومن ثم نقضى عليها بأن تلحقها الشيوخة « وأن تتجاوزها حقيقة اكمل منها . ورغم ذلك كله فهذا لايعني أن الحقيقة الجزئية ، المنبثقة ضمن سواها من المستوى الراهن للمعرفة الحالية ، لا يمكن أن تكون حقيقة موضوعية ، وانها - ببساطة - خطأ .

وليس في وسع انسان في يومنا هذا أن يدافع عن النظرية القائلة بعدم قبول الذرة للانقسام اطلاقا ، وبأنها كرة مطاطة صغيرة من المادة ، والا سلكته الناس في عداد الجاملين ، وبالمثل يستحيل الدفاع اليوم عن النظرية الزاعمة أن الواقعة التاريخية أشبه بمكعب صغير يحتفظ بشكله دائما وبالنسبة لجميع الناس ، وأن في استطاعة المرء أن يقيم بهذه المكعبات أبنية لا تختلف الا في الطريقة التي رتب بها (١) . ولكن هذا لايعني ، كما أسلفنا ، أنها خطأ خالص مطلق . كلا ، فالهامة أعسروا عقد من هذا بكثير ان أردنا - من جهة - أن نعارض وجهة النظر البدائية التي لا تستطيع أن تستوعب وتتذكر دورا واضحا هو الدور الذاتي في اكتساب المعرفة ، ومن جهة أخرى اذا أردنا أن نبقى على ما في نظرية الواقعة للتاريخية من صدق موضوعي ، فلا نضيق الجوهر مع العرض . وتحقيقا لهذا الهدف علينا أن نبدأ بعملية أساسية من زاوية التحليل المنوي ، أي علينا أن نوضح دلالات مصطلحاتنا . فلنبدأ اذن بمحاولة لتحليل مصطلح « الواقعة التاريخية » .

كتب « كارول ل. بيكر Carl L. Becker » ، لسان حال « الحاضرة presentism »

(١) القارة والحجج مستملان من لوسيان فيشر الذي التقه مفهوم التاريخ عند الفلاسفة الرومانيين : *L'Histoire historisante* ( انظر لوسيان فيشر Lucien Febvre, *Combats pour l'histoire*, Paris 1963, p. 114 f.)

المعروف في الولايات المتحدة الأمريكية مقالا هو في رأي من أمتع ما كتب عن الواقعة التاريخية (١) .

وفي بداية مناقشته لموضوعه يمهّد بيكر له خير تمهيد ، لذلك سنبدأ بإبراز فقرة من مقاله . يقول :

« حين يذكر أحدهم «الوقائع» تتفق كلنا معه . فاللفظ يعطينا شعورا بالاستقرار . ونحن نعرف أين نحن حين نقول أننا « نتناول الوقائع » ، كما نعرف مثلا أين نحن حين نتناول الوقائع المتعلقة ببناء الذرة أو بحركة الإلكترون غير المتوقعة وهو يقفز من مدار الى مدار . كذلك الحال في التاريخ . فالمؤرخون يشعرون بالأمان حين يبحثون في الوقائع . ونحن نتكلم كثيرا عن « الوقائع الباردة Cold » و « الوقائع الصلبة hard » ونقول « أننا لانسطيع أن نتجاوز « الوقائع » ، وأنه من الضروري أن نرسي قصتنا على « أساس ممكن من الوقائع » . وبمثل هذا الكلام تبدو لنا الوقائع التاريخية صلبة ، واقعية ، كأنها المادة الطبيعية ... شيئا له شكل محدد وأبعاد واضحة - كالطوب والمقاييس مثلا - بحيث نستطيع بسهولة أن نتصور المؤرخ وهو يتمتع فوق الماضي وتزل به قلعه فوق الوقائع الصلبة ان لم يأخذ حذر . ولا شك أن هذه مهمته ، إنها خطر يتعرض له ، لأن واجبه أن يثبت الوقائع وأن يجمعها معا ليستخدمها غيره . ولعله هو نفسه يستخدمها ، ولكن عليه أن يرتبها ترتيبا مناسبيا ليحقق من ورائها هدفا نافعا ، بحيث يتاح لأي إنسان - للباحث الاجتماعي أو لرجل الاقتصاد مثلا - أن يتصفحها ليستعين بها في أي مشروع بنائي (٢) » .

وبعد أن يضيف كارل بيكر أن الأمر ليس بالبساطة والسهولة الباديتين - وأن عبارة « الواقعة التاريخية » يشوبها الغموض الذي يشوب مصطلحات « الحرية » و « الديمقراطية » الخ ، يقترح - جلاء للبس - مواجهة ثلاثة أسئلة :

١ - ما الواقعة التاريخية ؟

٢ - وأين توجد ؟

٣ - ومتى تظهر ؟

فلنبدا إذن - كما يقترح بيكر - بالسؤال الأول :

---

(١) Carl L. Becker, «What are Historical Facts ?» في مجلة The Western Political Quarterly, VIII, 3, Sept. 1955, P. 327-340. ترجمه Hans Meyerhoff (ed).  
في The Philosophy of History in Our Time, New York 1958, P. 120-127

(٢) النص السابق ص ١٢٠ - ١٢١

## ما الواقعة التاريخية ؟

لقد لجأنا الى مثال من دنيا العلوم الطبيعية تمهيدا للدلاء بحججنا عن الوقائع التاريخية ولا بد لنا كذلك من القول ان سؤال « ما الواقعة ؟ » لا يقتصر اطلاقا على التاريخ أو العلوم الاجتماعية عامة ، فلقد طرح نفسه قبل ذلك بكثير في دنيا العلوم الطبيعية ، بكل ما يصاحب دور العامل الذاتي من متعلقات . وأول من طرحه هم فلاسفة الموضعية *Conventionalists* الفرنسيون ، وإبرهزم خط « بوترو - بو انكاريه - دويم - لوروا » ، فقد بدأوا بمشكلة الدور الذى تلعبه اللغة ( مجموعة المفاهيم ) ، والتعريف ، والنظرية ، فى تطوير العلوم ، وانتهوا ( خصوصا لوروا ) الى التشكك فى « الوجود المستقل » للواقعة العلمية وفى « سيادة » هذه الواقعة ، وشمل بناؤهم بالمثل « الواقعة الخام » ، أى التى ليست مكتملة لنظرية . وأيا كانت ، مواطن الضعف فى منهج للموضعية ، وخاصة من ناحية « الذاتية » ، فإن له فضلا لا ينأزغ ، هو طرح مشكلة الدور الذى تلعبه مجموعة المفاهيم فى بناء العلم ، وخاصة فى ادراك وصياغة ما يسمى بالوقائع العلمية . وعلم التاريخ من هذه الناحية مختلف زمنيا ، مهما بدا فى هذا القول من غرابة ، نظرا الى توفر الأدلة الخاصة والى أهمية المشكلة فى هذا السياق ، وهناك على الاخص الكثير الذى يجب تعلمه من التأمل وراء النظرى فى دنيا العلوم الطبيعية - سواء بالمعنى الإيجابى أو بمعنى الوعى بالأخطار المحدقة - اذا كان الأمر متصلا بدور اللغة الإيجابى فى دراسة الوقائع التاريخية .

ولكن لنعد الى السؤال : لا بد لنا أولا من تحديد ما نعنيه بكلمة « الواقعة التاريخية » فى علوم التاريخ . وما دام السؤال غامضا متشعبا الى حد من الأسئلة العينية ، فإن شكل الجواب يختلف باختلاف المعنى الذى نخلعه على السؤال .

فلننظر أولا فى الظواهر التاريخية أيها يمكن أن نسميه وقائع تاريخية . نحن نقول مثلا ان عبور قيصر نهر الروبيكون واقعة تاريخية . اذن فإن شيئا ما ، حدث مرة واحدة فقط ، قد يشكل واقعة تاريخية ( قد يشكلها ، ولكنه لا يشكلها حتما ، ولن نسلك فى هذا الباب الكثرة العظمى من الأحداث اليومية التى تعد بالملايين ) . على أن عمليات معينة لها سمات محددة معينة يمكن بالمثل أن تكون وقائع تاريخية . فنحن نقول ان الاضمحلال الذى طرأ على النظام الإقطاعى فى الريف نتيجة لازدياد قوة العلاقات الرأسمالية فى المدن يشكل « واقعة » تاريخية فى تاريخ توسيع فى القرن التاسع عشر . كذلك قد تشكل نظم معينة ودورها فى الحياة الاجتماعية وقائع تاريخية ( كبناء « الدايت » ونشاطه فى بولندة فى القرن الثامن عشر مثلا ) ، وكذلك المنتجات التى نشأت عن أحداث وعمليات معينة كالنماذج ، والقوانين ، الخ ، والمنتجات المادية للثقافة قد تكون وقائع تاريخية كالمقاييس الأثرية والحلى المكتشفة فى المقابر القديمة والأدوات والآنية والمختراعات العلمية والأعمال الفنية وحتى نبات - الدلة - التى حفظت تسليمة من الطيب .

وهكذا نرى أن عناصر وجوانب مختلفة للتاريخ ، أى التاريخ بمعنى « أشياء تمت » ، قد تشكل وقائع تاريخية : كالأحداث التى وقعت مرة فقط ، والعمليات الطويلة الأمد ، وكذلك العمليات المتكررة ، ومختلف المنتجات المادية أو الروحية لهذه الأحداث والعمليات . يلوح إذن أن نطاق ما يمكن أن يسمى « الواقعة التاريخية » نطاق زاهر متنوع ، ويمكن - من الناحية النظرية - أن يكون كل مظهر من مظاهر حياة الإنسان الاجتماعية واقعة تاريخية . نقول يمكن ، ولكنه ليس حتما . وهكذا فرقنا تقريبا واضحا بين الحدث الذى وقع فى الماضى ( ولنا أن نسميه واقعة ، بمعنى أنه حدث فعلا ) وبين الحدث الذى يهم أو يمكن أن يهم علم التاريخ بسبب أهميته فى العملية التاريخية . والنتيجة البسيطة لهذا التمييز هى أن كل واقعة تاريخية هى حدث وقع فى الماضى ( أى واقعة ) ، ولكن العكس ليس صحيحا ، أى أنه ليست كل واقعة من وقائع الماضى ، آليا ، واقعة تاريخية .

وهذا قول بالغ الأهمية ، فهو يعنى أن الفرق النوعى بين ماهو واقعة تاريخية وما ليس كذلك يجب ألا يلتبس فى التمييز بين الأشياء أو الأحداث ، بين الظواهر التى حدثت مرة فقط وتلك التى تكررت ، الخ ، بل إن علينا أن نبحث - ببساطة - فى إطار العلاقات ، فى سياق نوعى يجعل من الشيء أو الحدث العادى شيئا خاصا ، فيه من الخصوصية ما يكفى لجعله جديرا باسم « الواقعة التاريخية » ، وعلى ذلك سنعمل فيما يلى بهذا المعيار الذى يتيح لنا فصل الوقائع التاريخية عن الوقائع عامة .

ولنتنقل الآن الى المعنى الثانى لسؤال : ما الواقعة التاريخية ؟

وفى هذه المرة - كما اقترحنا - سنفرز من بين مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية ( الوقائع ) تلك الجديرة بأن تسمى « وقائع تاريخية » طبقا للتعريف . ولا يميننا - كما عدنا فيما سبق - أن نبين هل بعض المظاهر الخاصة للحياة ، أو بعض التفرعات الخاصة لهذه المظاهر ، جديرة بهذا الاسم . إنما علينا أن نقرر ما الذى يجب أن يتسم به مظهر ما من مظاهر الحياة حتى يستحق هذا الاسم الذى نكره على غيره من المظاهر التى تنتمى للغة نفسها ، لأنه يلوح أن من المحتمل أن نتناول جميع مظاهر الحياة .

وتعريف الواقعة التاريخية يبدأ عموما بالقول بأنها تحصل بوقائع الماضى . وهو قول صادق ، ولكنه صديق تافه بحيث لا يستحق الذكر . فما دما نتناول شيئا انقضى ، ولو فى اللحظة التى نتحدث فيها ، فمن الواضح أننا مازلنا نتحدث عن وقائع الماضى ، لأنه طبقا للتعريف لاقى آخر يمكن أن يظهر على المسرح . هذا إذن واضح ولا معنى لإطالة الوقوف عنده . ويكفى أن نقول أن أى مظهر من مظاهر حياة الفرد أو الجماعة يمكن أن يكون واقعة تاريخية ( ذاكرين الصلة الديالكتيكية بين هذين القطبين الباديين التناقض ، لأن الفرد دائما اجتماعى ، ولأن الجماعة تعمل عن نفسها فى صورة نشاط الأفراد الذين تتألف منهم ) . وكل مظهر من مظاهر الحياة يمسكن أن يكون واقعة

تاريخية ، ولكنه ليس كذلك بالضرورة ، ومهمتنا بالضببط هي معرفة اللحظة التي يصبح عندها هذا الامكان حقيقة واقعة .

ان عبور قيصر الروبيكون عام ٤٩ ق.م . لاجدال في أنه واقعة تاريخية . ولكن الروبيكون عبره قبل قيصر وبعده آلاف الناس ، ونحن لانتبر عبورهم هذا وقائع تاريخية . وجواب السؤال «لماذا» هو في هذه الحالة بسيط ، فالامر متوقف على سياق الحدث ، وارتباطاته بأحداث أخرى ، سواء من ناحية السبب أو النتيجة . فعبور قيصر الروبيكون عام ٤٩ ق.م . أنهى صورة من صور نظام روما القديمة ، وكان علامة بداية لصورة جديدة . أما ألوف المرات الأخرى التي عبر فيها قيصر نفسه أو غيره من الناس الروبيكون ، قبله وبعده ، فلم تتضمن هذه المعاني . وقولنا انه لم يكن لها أهمية تاريخية معناه انه لم يكن لها مثل هذه النتائج .

ومثل هذا قد يقال في شتى مجالات الحياة ومالها من مظاهر متنوعة . فهناك أحداث وعمليات ، كما أن هناك منتجات مادية وروحية شتى لهذه الأحداث والعمليات ( كآداب المجتمع وعاداته مثلا ) ، لا تتردد في اعتبارها « وقائع تاريخية » ، في حين أننا لانصت غيرها من نوعها بهذا الاسم . ذلك لأن تلك - كما نقول - تتخذ أهمية كبرى بسبب نتائجها ، في حين لا نرى لهذه الأهمية .

اذن فالمسألة دائما مسألة سياق أو محيط معين ، مسألة ارتباطات مع كل ، كما أنها ارتباطات ينسق للعلاقات . وهذا النسق في غاية الأهمية ان أردنا فهم الطابع النسبي لما نسميه « الواقعة التاريخية » . ولا بد لنا من أن نكون على وعي به ان همتنا أن نتبين لم كان الحدث نفسه ، أو العملية نفسها ، أو منتجاتها المادية والزوجية ، مفتقرة الى الدلالة التاريخية من وجهة نظر ما ، في حين أنها من وجهة أخرى وقائع تاريخية ذات أهمية . فالباحث الذي يريد تعيين مصادر التاريخ السياسي مثلا لبلد ما لا يكتف بشهدادة ثقافة هذا البلد وفنه مالم يربطها ارتباطا مباشرا بحياته السياسية . اتها يبدوان في نظره لا مغزى لهما ، في حين أنهما يصيحان من الوقائع التاريخية المهمة ( لا في جميع المجالات بالطبع ، ولكنهما قد يصيحان كذلك في ظروف معينة ) اذا وضعا في سياق تاريخ ثقافة البلد أو العصر الذي تنور المناقشة حوله . وقد يكون هذا تعليقاً تافهاً ، ولكن لا بد منه ان أردنا أن نفهم تحليل مفهوم « الواقعة التاريخية » الذي نحن بصدده .

يتضح اذن أن الوقائع التاريخية مظاهر لحياة الأفراد أو الجماعات اختبرت من بين غيرها من المظاهر الكثيرة التي تنتمي للنوع نفسه .، وذلك لارتباطاتها العملية ولما لها من تأثير داخل اطار كل أوسع منها بكثير - ومعيار الاختيار هنا هو النقل ، أو التأثير الذي للحدث الخاص أو العملية الخاصة أو منتجاتها . فمن اذن نفترض نسقا للعلاقات يجرى التقويم ، وبالتالي الاختيار ، في اطاره وبمقتضاه ، كذلك نفترض وجود ذات تحدث هذا التقويم والاختيار . ومع ذلك التي لا غنى عنها يدخل العامل

البشرى ميدان الوقائع التاريخية بكل ما يرافقه من المضاعفات التي تنشأ من الدور الإيجابي للذات ، ومن تأثير للعامل الذاتي في عملية اكتساب المعرفة . ولنا عود الى هذه المشكلة حين نحلل بمزيد من التفصيل مشكلة اختيار الوقائع التاريخية ، وتكفي الآن هذه العبارة العامة التي انتهينا الى صياغتها جوابا للسؤال الذي ناقشه ، وهو « ما الواقعة التاريخية ؟ » .

أما المعنى الثالث للسؤال عن الواقعة التاريخية فخاص ببنائها . علينا أن نعين أمي واقعة « بسيطة » أم « مركبة » كما يصفها البعض ، حقيقة « خاصة » أم « عامة » كما يزعم غيرهم ، أم أنها شيء آخر غير هذا كله .

لنعد الى مقال كارل بيسكر الذي نقلنا عنه من قبل ، والذي يبدأ نقاشه بهذا المعنى من السؤال :

« فلنبداً. إذن بهذا السؤال : ما هي الواقعة التاريخية ؟ دعونا نأخذ واقعة بسيطة. كاسط ما تكون الوقائع التي يهتم بها التاريخ . نقول مثلاً : « في عام ٤٩ ق . م . عبر قيصر نهر الروبيكون » ، تلك واقعة مألوفة يعرفها الجميع ، ولعلها امتازت ببعض الأهمية لأنها واردة في كل ما كتب عن قيصر العظيم ، ولكن هل هذه الواقعة بالبساطة التي تبدو بها ؟ أها هذا المضمون الواضح ، الدائم ، الذي ننسبه عادة للواقعة التاريخية البسيطة ؟ حين نقول ان قيصر عبر الروبيكون فنحن بالطبع لانعني أنه عبه وحده ، بل مع جيشه . والروبيكون نهر صغير ، ولست أدري كم من الزمن استغرق جيش قيصر في عبوره ، ولكن لا بد أن العبور اقترن بأعمال كثيرة وبكلام كثير ، وبافكار كثيرة لرجال كثيرين ، أي أن مئات « الوقائع » الأصغر تضافرت لتكون هذه الواقعة البسيطة الواحدة ، وهي أن قيصر عبر الروبيكون ، ولو قيض لنا كاتب ، كجيمس جويس مثلاً ، يكتشف هذه الوقائع ويربط بينها لانتضاء ذلك ولا ريب كتاباً من ٧٩٤ صفحة يقدم فيه هذه الواقعة البسيطة ، وهل أن قيصر عبر الروبيكون . وهكذا يتضح أن الواقعة البسيطة ليست على الإطلاق واقعة بسيطة . أما البسيط فهو تقرير هذه الواقعة ، أي للتعميم البسيط لمغات الوقائع » .

ويواصل المؤلف حجته ، فيؤكد أننا نعتبر عبور قيصر الروبيكون واقعة تاريخية ، بعكس غيره من مئات المرات التي يعبر فيها الناس هذا النهر يومياً ، لا شيء إلا لأننا نرى ونفهم ارتباطاته بغيره من الأحداث والظروف ، كالعلاقات بين قيصر ويومبي مثلاً ، وبينه وبين مجلس الشيوخ ، وبينه وبين الجمهورية الرومانية ، أو كالامر الذي أصدره إليه مجلس الشيوخ بالتخلي عن قيادة الجيش العالي ، أو كرفض قيصر الاذعان للمجلس وأهمية عبور الروبيكون في زحفه صوب روما ، الخ ، الخ .

ويخلص بيسكر الى هذه النتيجة :

« صحيح بالطبع أن الواقعة البسيطة تتضمن ارتباطا بغيرها ( من الأحداث الأخرى لهذه الفترة ) ، ولهذا وحده بقيت حية طوال ألفي عام . انها متصلة بوقائع أخرى كثيرة ، بحيث لا يمكن أن تكون ذات أهمية الا اذا فقدت حدودها الدقيقة . ولا يمكن أن يكون لها معنى الا اذا انضمت في ذلك النسيج المعقد للظروف التي أوجدتها » .

يتضح إذن أن الواقعة التاريخية البسيطة ليست بالشيء الصلب البارد ، الواضح الحدود والأبعاد ، المؤثرة بضبط قابل للقياس ، كالطوبى مثلا . فهي على قدر ما نفهم ليست الا رمزا ، تقريرا بسيطا يشكل تعميما لمئات من وقائع أبسط لانوى الإشارة إليها في اللحظة الراحنة . وهذا التعميم لا يمكن استخدامه اذا نحن عزلناه عن شبكة أوسع من الوقائع والتصميمات التي يرمز إليها . ويمكن القول بوجه عام انه كلما ازدادت الواقعة التاريخية بساطة ، ووضوحا ، وتعددا ، وقبولا للاثبات ، قلت قدرتنا على استخدامها لذاتها .

والنظرية واضحة : فليس هناك وقائع بسيطة ، وبساطتها ليست الا ظاهرية . وهذا الوهم انما تثيره بساطة العبارة التي لا تأخذ في الاعتبار غنى الواقع العيني رغبة في التعميم . فهذا الواقع يتألف في جميع الحالات - وفي تلك التي تبدو في غاية البساطة ، في أبسط عبارتنا عن الأحداث المفردة - من حلقات لا حصر لها تربط هذه الواقعة بغيرها من الأحداث أو العمليات ومنتجاتها ، التي في سياقها تظهر الواقعة ويمكن فهمها . والواقع يقرره على الدوام كل متعدد الارتباطات متواقف المقومات . وما يسمى بالواقعة البسيطة ليس الا عنصرا واحدا انتزع من سياق الكل . وشكل الواقعة التي نحن بصدها بسيط حقا بفضل طابعه التجريدي ، ولكننا لو أردنا تطبيقه على الواقعة نفسها لفقدت كل معنى لها ولما عادت واقعة تاريخية . إذن فليس هناك وقائع بسيطة ، وكل الوقائع التاريخية معقدة غاية التعقد . وقد قال لينين مرة ان الالكترون لامتناه في إمكانات دراسته وتحليله كالمادة سواه ، وهذا القول يصدق على ما نسميه الواقعة البسيطة في ميدان التاريخ مع علم تجاهل الفوارق بين الحالتين .

وتحليل بيكر والنتائج التي خلص إليها صحيحة ، وهي دياكتيكية في عمق ( ولنا عود إلى ما نخالفه فيه منها ) . ان سؤالاً سيء الصياغة - كما نعم - يمكن أن يقلب مجرى البحث . فاذا انتزع المرء نواحي معينة من سياقها ، وأخذ عبارة ذات طابع تجريدي ، ليثبت أن الواقع الذي تشير إليه العبارة « بسيط » ، فإن الخطأ يمكن أن يعزى لا إلى « الوقائع » ، ولكن إلى مؤلفي هذه التصنيفات والنظريات ، كذلك فإن تصنيفا يقسم الوقائع إلى بسيطة ومركبة أو إلى خاصة وعامة هو في رأي خاطئ .

هذه التحديدات تقليدية متصلة بطابع العبارة لا بطابع الواقع موضوع البحث . فليست الواقعة هي البسيطة ؛ بل نحن نهتم بتبسيطها . ( بتيسير السرد ، يجعل الموقف

عن قصد أكثر تعمداً ، بحذف التفاصيل غير المهمة من السياق الخ ) ، وليست الواقعة هي الجزئية ( فإذا تكون لو كانت « كلمة » ؟ ) ، بل نحن نهتم بتأكيد جانب واحد دون غيره من المشكلة الخ ...

هذه المشكلة : حل الطابع الجزئي أو الكلي ، البسيط أو المركب ، توصف به الوقائع التاريخية نفسها ( بمعنى الأحداث التاريخية ) ، أم العبارات المتعلقة بهذه الوقائع ؛ هذه المشكلة تسليماً رأساً إلى المعنى الرابع الذي يفهم من سؤال « ما الواقعة التاريخية ؟ » ، والسؤال هذه المرة يخفى المشكلة التالية : حل « الواقعة التاريخية » تعنى حدثاً من أحداث التاريخ ، أى حلقة فى سلسلة « الأعمال التى تمت » ، أم أنها تعنى رواية متعلقة بالتاريخ ، أى عنصراً فى « تواريخ الأعمال التى تمت » . أم أن هناك بديلاً آخر غير هذين .

ان عبارة « الواقعة التاريخية » يمكن – نظرياً – أن تعنى أيأ من هذين على السواء . فاضياح المثالية بالطبع على يقين راسخ من أنهم دائماً يتناولون هنا واقعة روحية ، أما أنصار المادية فيؤكدون الطابع الموضوعى للواقعة التاريخية ( الأعمال التى تمت ) . وهذا الخلاف يطوى فى ثنائيه معانى نظرية ومثودولوجية مهمة . لذلك يحسن بنا أن نقف هنا عنيتها ، ولو لهذا السبب دون غيره .

فلنعد مرة أخرى إلى مقال بيكر الذى يتخذ فى هذه الحالة موقفاً مقالياً فى غير مواربة دعماً للحاضرة . يقول :

« ما الواقعة التاريخية إذن ؟ معاذ الله أن أحاول تعريف هذا الشيء الخداع غير المحسوس ! ولكنى أقول هذا مؤقتاً : ان المؤرخ يستطيع أن يهتم بكل ما يتصل بحياة الإنسان فى الماضى ، مثلاً فى كل فعل أو حدث ، فى كل الفعل صدر عن للناس وكل فكرة أصروا عنها ، صادقة أو كاذبة . انه يستطيع بالطبع أن يهتم بحدث من هذا النوع ، غير انه لا يستطيع الاتصال المباشر بهذا الحدث ، لأن الحدث نفسه قد زال . أما ما يستطيع الاتصال المباشر به فهو بيان متعلق بهذا الحدث . أى انه – فى اتجاز – ليس معنياً بالحدث ، بل ببيان يؤكد وقوع الحدث . فمن حين تعمق حقاً إلى الوقائع الصلبة تجد المؤرخ دائماً معنياً بتأكيد أن شيئاً ما قد حدث حقاً . ولذلك فلا بد أن نميز بين الحدث العابر الذى يزول وبين التأكيد المتعلق بهذا الحدث ، التأكيد الذى يبقى . وهذا التأكيد على الحدث هو – من جميع النواحي العملية – ما يشكل لنا الواقعة التاريخية ، وإذا كان الأمر كذلك فالواقعة التاريخية إذن ليست حدثاً ماضياً ، بل هي رمز قادر على إحياء هذا الحدث فى خيالنا . والرمز لا يمكن وصفه طبعاً بأنه « صلب » و « بارد » ، ومن الخطر أن يقال عن الحدث نفسه انه صادق أو كاذب . وخير ما يقال فى الرمز انه مناسب أو غير مناسب » .

تقلت هذه الفقرة الطويلة لأنها تعرض بغاية الوضوح والدقة المفهوم المثالى للواقعة التاريخية ، ومن ثم تسمح بمادة عينية للمناقشة والجدل .



ويمكن اجمال حجج بيكر فيما يلي :

( ١ ) الواقعة التاريخية بيان عن حدث ما .

(ب) انها كذلك لأن المؤرخ يتصل اتصالا مباشرا ببيان عن الحدث ، لأن الحدث نفسه قد زال .

(ج) اذن فالواقعة التاريخية ليست الحدث نفسه ، انما هي رمز يستطيع ان يبعث في خيالنا صورة الحدث .

( د ) بناء عليه فليس في معنا ان نصف الوقائع التاريخية بانها « صلبة » ، ولا حتى بانها صحيحة أو كاذبة ، ولكن مادامنا نتحدث عن الرموز في الامكان أن نقول انها مناسبة أو غير مناسبة .

وأهم نقط هذا الحجاج بالطبع هي (ب) و (ج) ، وبهما تبدأ . أصبح القول بأننا لاستطيع رؤية الأحداث الماضية مباشرة لأنها انقضت ، فان ما نتصل به اتصالا مباشرا ليس الا بيانات عن هذه الأحداث ، أو آراء فيها ؟ أيا كان الأمر فلا بد من أن نلاحظ أن هذا — على تقيض ما يوحى به الظاهر — لا يتعلق بالوقائع التاريخية فحسب ، اذ الواقع أننا انما نتناول كل المعرفة التي لاتولد في اللحظة الراهنة ، وبما ان « اللحظة » تصور مثالي ، ونحن معنيون دائما بعمليات يستغرق حدوثها فترة من الزمن ، اذن لهذا يتعلق حرفيا بجميع معارفنا . وعلى ذلك فنحن نجد أنفسنا في مواجهة اعلان لايمان ، اعلان مثالي بحت ، ومثالي على نحو ذاتي متميز في حالتنا هذه . على أن هذه ليست سوى ملاحظة عابرة ، وما هي بالحجة ضد نظرية بيكر ، فما هي حججنا اذن ؟

لنبدا بهذه الكلمة التي نلقاها في حجاج بيكر ، كلمة « مباشرة » التي تبدو بريئة في الظاهر .

أصبح أننا حين نقول ان قيصر عبر الروبيكون في ٤٩ ق م . لالرى مباشرة قيصر عبيرا الروبيكون ، وانما نتخيل ذلك فقط ؟ صحيح ما في ذلك ريب . فقيصر لايعبر الروبيكون في اللحظة التي نتكلم فيها ، وإن احدا من الناس لايزعم هذا ، ولو وجد انسان يود أن يمشي هذا العبور « مباشرة » لوجب أن يوضع في مستشفى لمرضى العقول . والواقع أن هذا لا أهمية له على الاطلاق ان كنا معنيين بموضوعة معرفتنا ، أي أن اردنا أن نعرف هل ما نتحدث عنه يتطابق مع حدث وقع فعلا . ذلك أن المشكلة التي نحن بصدها هي مشكلة « موضوعة المعرفة » ، لا التلاصق والتحايل بلنظ « مباشرة » .

ولكى نحدد موضوعنا تحديدا أفضل نترك مؤقتا الواقعة التاريخية التي أثبت في عبارة عبور قيصر الروبيكون ، ونأخذ عبارة — كيفما اتفق — من الجحاة

اليومية . فنحن نقول مثلا « قابلت فلانا أمس في الطريق » ، وصديق هذه العبارة لأدعاه أنا وفلان هذا فحسب ، ولكن يدعمه كذلك عدة أصدقاء حضروا المقابلة ، كما تثبت صورة فوتوغرافية التقطها أحدهم لحظة اللقاء . هنا يهب كارل بيكر ويقول : « انكم لستم معنيين مباشرة بواقعة هذا اللقاء ، لأن الحدث أصبح من أحداث الماضي ، أما ما أنتم معنيين به مباشرة فليس سوى عبارة تؤكد أن هذا اللقاء تم ، وأذن فالواقعة ليست لقاء كما الفعلي ، بل مجرد التأكيد ، أي رمز اللقاء » . ولو أننا سمعنا هذا القول في حياتنا اليومية لاكتفينا بالقول أن المتكلم يخرج عن الموضوع ، ولحدجنه بنظرة عطف ورناء . أما أن كنا نمارس الفلسفة ، أو نتناول الأشياء بالتأمل وراء النظري ، فإننا لاستطيع أن نسلك مسلكا في الحياة اليومية . ليس في وسعنا في هذه الحالة الاكتفاء بالقول لأنفسنا أن المتكلم يخرج عن الموضوع ، بل يجب أن نأثي بالحجج ونثبت موطن الخطأ في حجة خصمنا . وهنا يكمن - إلى حد كبير - ما تتطلبه ممارسة الفلسفة من حلق ، وما يكتنف طريقها من مصاعب .

نصلنا التجارب أننا إذا واجهنا عبارات متناقضة (وعبارة خصمنا الكريم تشكل تناقضا مثيرا بمجرد نقلها من الحيز التاريخي إلى حيز الحياة اليومية) وجب أن نبحت عن مصدر الخطأ المنطقي في خطأ لفظي ، ينجم عادة عن لبس في المصطلحات . فإذا نظرنا في الأقوال بيكر التي تهمن اتجاه شبهاتنا ولامحالة أول ما تتجه إلى كلمة « مباشرة » .

يقول بيكر « لسنا معنيين مباشرة بواقعة عبور قيصر نهر الروبيكون ، إنما نحن على العكس معنيون بعبارة أو ببيان حول هذه الواقعة » . ولو نقلنا هذه الحججة إلى نطاق الأحداث اليومية لنقلنا قياسا على ذلك : « لسنا معنيين بواقعة لقاء فلان بفلان أمس ، إنما نحن على العكس معنيون ببيان حول هذه الواقعة » . فما الذي يحدث حين يذكر بيكر مرتين ، ويذكرها بتقديد ، هذه الكلمة « السرية » ، كلمة « مباشرة » ، ما المعنى المقبول لها ؟ وما النتائج الفلسفية لهذا المعنى ؟

إن مصطلح « مباشرة » مرتبط بمشكلة قديمة جدا ، يعرفها الفلاسفة جيدا ، أحدثت رجة كبيرة في تاريخ الفلسفة ، ففي مفهوم معين لهذا المصطلح لا يمكننا أن ندرك حسا أو نعرف أي شيء مباشرة : لا أحداث الماضي ( وهذا واضح ) ، ولا حتى الأحداث أو الأشياء أو الظواهر التي ندركها حسا ونعرفها الآن في لحظة ادراكها . فلهذه الشجرة ، التي أدركها في هذه اللحظة بمعناها ، موجودة خارجي ، موضوعيا ( مالم نفرض بر مثاليته المتطرفة إلى أن انكر حتى هنا ) ، وكل ما أقوله هو أنني أجمع مشاعر مدركة ، ومن ثم فانا لا أعرف هذه الشجرة « مباشرة » ( إذا استعملنا هذا اللفظ بمعنى نوعي ) . فماذا نقول إذن في العمال المعرفة المقتدة التي لا يمكن أن تتضمن إدراك موضوع الدراسة بالحواس ، بل إدراك آثاره فقط ( في مجال الميكروفيزياء مثلا ) ؟ لو أن المرء عالج المسألة من هذه الزاوية كما يفعل بيكر ومدبرته لما عرف « مباشرة » سوى ما جربه ، ومن ثم تكون وجهة النظر الوحيدة المقبولة المقولة هي وجهة نظر

المثالية للحاثة ( المثالية الواقعية *immanent idealism* ) . ولن يدعش هذا الذين يعرفون تاريخ الوضعية وأوهام الحاثة وتقلباتها ، التي مردها بالضبط هذه الطريقة في التفكير . ومن ناحية أخرى نستطيع أن نرى مرة أخرى تأييد النظرية القائلة بأن كل من يضطلع بالتأملات الفلسفية ( وكل ضروب التأمل وراء النظرية فلسفية ) يجب أن يعرف تاريخ الفلسفة ، والا تعرض للخطر الذي أشار إليه أنجلز ، خطر الارتداد دون وعي إلى أسوأ الفلسفات قاطبة ، وهي الفلسفة الانتقائية أو التلقائية *eclectic*

ولكن لنعد إلى مصطلح « مباشرة » الذي نحن بصدد ، إذ لابد من تحديد معناه مادما نعلق عليه هذه الأهمية الكبرى في عملية التدليل ، ولكن بيكر لا يفعل هذا ، ويسلم نفسه فريسة للبس الذي ينطوي عليه اللفظ . فهو حين يقول « أننا لاستطيع أن نعرف حدثاً تاريخياً » مباشرة » لأن هذا الحدث قد مضى » لايسمنا إلا أن نؤمن على قوله . وهذا يتضمن على النقيض من ذلك أن الحدث معروف لنا بطريقة غير مباشرة . على أننا نعرف مباشرة مصادره معينة ، وكذلك النتائج المادية لمعطيات معينة ، محفوظة إلى يومنا هذا . هنا يبادر كارل بيكر بالرد بأن ما نتناوله مباشرة ليس إلا تأكيدات ، أو أحكاماً ، أعني عناصر مستقاة من العقل ، وأن نسبت إلى الأحداث موضوع البحث . وهذا خطأ ، لا من وجهة نظر الوقائع وحسب ( فانه من العسير حقاً أن يفكر المرء في حرم خوفه ، أو في نسخة من الماجنا كارتا ثبتت صحتها ، على أنهما مدركان بالعقل لفظ ) ، بل كذلك من وجهة النظر الشكلية . فمعنى لفظ « مباشرة » الثاني هذا مختلف عن معنى سابقه ، وواضح أننا هنا أمام زلة منطقية نجست عما في الاصطلاح من لبس . ففي الحالة الأولى حين نقول « مباشرة » نعني إدراكنا الحسي للشيء ، أو الحدث موضوع البحث ، أمضى هل نحن ندرکه بملاحظتنا الشخصية ، لا بواسطة مرّلقين آخرين ( من المعاصرين لنا أو ممن عاشوا في فترة سبقتنا وتركوا روايات مكتوبة ) ، أو بمساعدة آثار مادية . كمصادر الحدث ، أو منتجاته ، أو آثاره التي يمكن ملاحظتها بصرف النظر عن الحدث نفسه ) . أما في الحالة الثانية فإن لفظ « مباشرة » يفهم منه ضمناً ضرورة الإجابة عن هذه المشكلة الفلسفية « ما الذي تتضمنه المعرفة ؟ » ، أعني ببساطة - ذلك الخلاف بين المادية الحاثة ( الواقعية ) والمثالية . والمطى الذي يغلبه بيكر على اللفظ « مباشرة » في هذه الحالة - كما نهبنا - مأخوذ من المثالية الحاثة . وهذا - إذا تكلمنا فلسفياً - ليس بالمعنى المستغرب البعيد الاحتمال جداً ، إذ أن بحوثاً فقهية كتبت يفرض واحد ، هو أننا لانعطى مباشرة ، لا أشياء العالم الواقعي فحسب ، ولا المبركات الحسية أيضاً . وموطن الخطأ في الواقع هو أن بيكر قد خلط بين هاتين المشكلتين المتميزتين رغم ما بينهما من علاقة إلى حلما ، فخرج من هذه الملاحظة العادية ... وهي أننا لايمكن أن تكون جهود عيان لأحداث مضت - بنتيجة هي أننا لانعطى « مباشرة » إلا تأكيدات عن هذه الأحداث . وهذا - منطقياً - ليس إلا « استنباطاً خلفياً *non sequitur* » لا شك فيه ، ومن الواضح أن مصادر الأحداث الماضية ومنتجاتها المادية وما إلى ذلك تعطى لنا - مباشرة ( بلعنى الأول للمصطلح ) . فلا جادل الفيلسوف الحاثة في هذا فلا شك أنه لا يفكر في الوقائع

التاريخية ، بل في صورة عامة للعالم . وهذا يطرح مشكلة أخرى ، ويجب عدم الخلط بين هذين الشئتين ، مما يزيد في أهمية الحذر من أن نستنتج من أحدهما نتائج تخص الآخر ، لمجرد أننا في الحالتين نستعمل لفظا واحدا ملتبساً هو لفظ « مباشرة » .

على ان الأمر لا يمكن قصره على اللبس اللفظي والزلل المنطقي فحسب . فلادراك الحسي المباشر ، ومن ثم المعرفة ( بالمعنى الأول للفظ « مباشرة » ) ، يزودنا أيضا بـ « فتشقات » . فأي فرق بالنسبة للمعرفة التاريخية ( أو أي معرفه أخرى ) ان كانت من عمل ذات واحدة ، وأكثر من ذلك عمل اشتراك بصري في جميع العمليات والاحداث موضوع البحث ؟ لا فرق على الإطلاق . ومثل هذا الغرض لا معنى له ، ولو طبق حرفيا لهدد بالقضاء على المعرفة الانسانية جملة . فما من أحد في ميدان العلم في وضع يتيح له أن يدرك بحسه ويعرف كل شيء بنفسه ، أن يكون شاهد عيان لكل شيء . وما دام ، حسب تعريفنا ، مشاركة بين ذوات كثيرة ، فإن هذا الغرض مستحيل ، كما أنه عديم الجدوى . ومثل هذه الفكرة البعيدة لاتخطر لافيلسوف ، لابل فيلسوف في تفكيره شطط وغلغل كبيران ، لأنه لابد أن يكون من اصحاب المثالية الذاتية صَح انحراف شديد نحو « Solipsism »

الآن فمما جوابنا لسؤال بيكر عن الواقعة التاريخية ؟ ان الواقعة التاريخية عنصر ، شظية من « الأشياء التي تمت » ، وبعبارة أخرى حدث موضوعي من أحداث الماضي ( وادخالنا لفظ « الماضي » ليس الا من قبيل الحذلة ، لاننا مادامنا لاتكلم على المستقبل فإن كل الأحداث التي نستطيع الكلام عليها هي فعلا في الماضي ) ، والطابع المباشر أو غير المباشر للمعرفة التاريخية ، شأن درجة دقتها الخ . . . هي مشاكل من نوع آخر ، ولا دخل لها في تعريف الواقعة التاريخية . ومن جهة أخرى فإن حديثنا حول الأحداث التاريخية يمكن أن يصبح هو نفسه واقعة تاريخية اذا كان قد لعب دورا تاريخيا من أي نوع ، أي اذا كان قد أثر في مجرى التاريخ . ولكن من الخطأ اعتبار لفظ « الواقعة التاريخية » والإدراك الروحي لتأكيد متعلق بواقعة تاريخية أمرا واحدا ، وهذا على أي حال مناقض للمعنى المسلم به لهذا الاصطلاح ، وهو ناشئ عن وجهة نظر فلسفية تطبق دون حق تطبيقا عاما كائنا هي إحدى المسلمات ، على أن من بين نظريات بيكر نظرية واحدة مقبولة ، وان كان قبولها لدواع مختلفة تماما من تلك التي يقدمها . فنحن لانستطيع أن نقول عن واقعة تاريخية انها صادقة أو كاذبة ، فهذا الوصف يصدق على الأحكام الصادرة على الواقع ، لا على الواقع نفسه . كذلك يقول بيكر ان الواقعة التاريخية لايمكن وصفها بأنها « خام » ( وفي عبارة بيكر باردة ، صلبة ) ، وهذا صحيح ، ولكن لأسباب غير التي ذكرها ( فهو يقول ان « الواقعة التاريخية » رمز ، وان كل ما يمكن أن يقال في الرمز هو انه مناسب أو غير مناسب ) .

وهذا يؤدي بطبيعة الحال الى المفهوم الخامس لسؤال « ما الواقعة التاريخية ؟ » ، وهو مفهوم مكمل للسؤال الخاص ببناء الواقعة التاريخية ( أي هل هي بسيطة أم مركبة ) ، ولكنه متجمل في أنه يدخل ميدان المعرفة الروحية ( الفنوسولوجيا

(gnoseology) ، فهل الواقعة التاريخية « خام » ( دون ملحق ذاتي لها ) أم هي نتيجة لتأثير المؤرخ ، وعن طريقه نتيجة لنظرية مقرر سلفا ؟

ولقد سبق أن قلنا انه في ميدان العلوم الطبيعية طرح مذهب المواضعة مشكلات ماثلة في تاريخ اسبق بكثير ، وأجاب عن السؤال بالنفي . وأصحاب هذا المذهب الذين أنكروا وجود الوقائع « الخام » - لاسيما لوروا - لجأوا الى الدور الإيجابي لله ( مجموعة المفاهيم ) ، والتعريف ، والنظرية ، لتقرير ما يسمى بالواقعة العلمية ، فهي إذن - بمعنى معين - كانت تمثل في نظرهم انجازا ، أو نتيجة ، لا نقطة انطلاق . والمنظر ( باحث النظريات ) في ميدان العلوم التاريخية يبدأ بهذه الكلية وإن اختلفت نقطة الانطلاق المعينة لتفكيره .

لنرجع الى بيكر مرة أخرى ، لأن ملاحظات هذا المؤلف عن موضوعية المعرفة التاريخية ، لاسيما موضوعية الوقائع التاريخية ، وثيقة الصلة بالموضوع وطريقة دعم النزعة المثالية التي يمثلها الكاتب . وهو يبدأ من نقد للمثل الذي يقول به الوضعيون ، وهو عرض التاريخ كما حدث فعلا ، عرضا يسمح باحتمال أن المؤرخ لا يستطيع أن يدخل شيئا في هذه المعرفة « خارج لوحة عقله الحساسة التي تسجل عليها الوقائع الموضوعية دلالاتها الخاصة ، لأنه لا يمكن مساومتها » ( ص ١٢٩ من النص المذكور ) . ويؤكد بيكر - معارضا في ذلك اللقاءات من أمثال رانكي وفوستل دو كولايج وغيرهما - أن المؤرخ ، فضلا عن عجزه عن النفوذ الى صميم جميع الوقائع التي يتخيرها ، لا يستطيع حتى ارتياد واحدة منها ارتيادا كاملا ، أي أنه لا يستطيع عرض شظية واحدة من الواقع بكل تفاصيلها وتضميناتها . فلانماص لنا - حتى في ميدان الواقعة التاريخية - من الاختيار من بين جميع الوثائق المتكسمة .

ولكن المؤرخ لا يستطيع في أي حالة أن يدلي بتأكيدات حين يصف جميع وثائق وأفكار ومشاعر كل من شارك في حدث وصف في جملته . وهذا هو السبب في أنه لا بد للمؤرخ من أن يختار فروضا معينة عن الحدث ، ويربطها معا بطريقة ما ، رافضا غيرها من الفروض والطرق الممكنة للربط بينها . وقد يجد مؤرخ نفسه مضطرا لاختيار مختلف من اختيار مؤرخ آخر ، فلم لا ما الذي يحمل مؤرخا ما على أن يختار من بين كل التأكيدات الصحيحة الممكنة عن المواقف المعين بعضها منها يصينه دون غيره ؟ إن هذا يحلده الهدف الذي في ذهنه . واخذ فالهدف الذي يسعى اليه سيقرر المعنى الدقيق الذي سيستخلصه من الحدث ، فالحدث نفسه ، والوقائع نفسها ، لا تقول شيئا ، ولا تفرض دلالة . انما الذي يتكلم هو المؤرخ ، وهو الذي يفرض الدلالة (١) .

هنا نجد مسألة الأحداث التاريخية والوقائع ، وانعكاسها في العقل في صورة أحكام متصلة بها ، مطروحة بطريقة واضحة . وهذا يناقض تأكيدات بيكر السابقة ،

التي لا ترى في واقعة ما الا رمزا يعث في خيالنا من جديد : الحدث ، أو الواقعة ، مكونة ماضيا موضوعيا ، مرتبطا بالواقع يخيوط لاحصر لها . ونحن حين نحيط علما بهذه الشظية من الواقع ، أى موضوعية الواقعة التاريخية المعينة ، لابد أن نختار من بين الروابط التي لاحصر لها ، ونأخذ منها تلك التي تهمن في سياق اطار العلاقات المعين ( وذلك من وجهة نظر المؤرخ هو الهدف من هذا التمرين ) . وهكذا نضفي دلالة محددة على الواقعة التاريخية ، فنرفعها بذلك الى مستوى الواقعة العلمية .

والذي يهمنا في هذه الحجة هو أنها تبرز دور المؤرخ بوصفه ذاتا يأخذ المعرفة داخل الوعي التاريخي . وهو باختصار دور تافه في ضوء هذا التحليل للعلاقة المعرفية والدور الإيجابي الذي يتخذه الذات التي يأخذ المعرفة . ولكننا حين نطبق هذه الصيغة ، التي هي صيغة عامة ، على رقعة محددة من البحث ، على واقعة تاريخية ، فإن قوتها المساعدة على الكشف تزداد وضوحا .

علينا أن نفرق بعناية بين « واقعة » ينظر إليها كحدث تاريخي موضوعي و « واقعة » ينظر إليها كانعكاس في عقل الانسان ، في المعرفة . ذلك أن الواقعة التاريخية الموضوعية لها وضع وجودي مقرر ، وهذا بالغ الأهمية بالنسبة للمبدرك العقلي في جملة . ولكن لها أيضا وضعاً غنوصيولوجيا . والواقعة التاريخية من هذه الناحية تهمن ، لا بوصفها « شيئا في ذاته » حسب مذهب كانت ، ولكن بوصفها « شيئا لنا » . ومن وجهة النظر هذه بالضبط نتكلم عن الوقائع الخام ، والوقائع المفسرة نظريا ، كذلك من وجهة النظر هذه يجب أن نقول بصفة قاطعة أن « الوقائع الخام » خالية من المعنى خلو « الشيء في ذاته » ، خالية خلو أى « لأدوية » متطرفة . ذلك لأن التأكيد الوجودي بأن شيئا - والشيء هنا هو الواقعة التاريخية - له وجود موضوعي ، مساو لرفض دعاوى الذاتية التي تزعم أن ذلك الشيء نتاج الذات المفكر ، فالشيء - طبقا لهذا التأكيد - مسألة . وأما التأكيد الغنوصيولوجي الخاص « بصورة » ذلك « الشيء » في عقل الانسان فمسألة أخرى . وهذا هو الذي نتحدث عنه حين نبحث إمكان عرض « الوقائع الخام » . فإذا سلمنا بأننا معنيون بعملية الوعي ، والعلاقة المعرفية ، فإن الذات المفكر ودوره الإيجابي في المعرفة يظهر على المسرح طبقا لتعريفنا . وهذا يضيف من فرض « الواقعة الخام » ، ويتهمه بالتناقض في الموضوع .

اذن فليس هناك « وقائع خام » . وهي تعريف لا يمكن أن توجد . فالوقائع التي تعيننا في العلم ، بل على وجه أهم في ميدان المعرفة ، تحل معها على الدوام طابع الذات ، وليس في هذا القول ذاتية . فالبدء بما نعرف أنه واقعة ، والمضى في اثباتها باختيار لمكوناتها ، وبتحديد زمانا ومكانا ومادة ، ثم الانتهاء بتفسيرها ، كل هذا يصاحبه دائما تدخل العامل الذاتي ، وتدخل مختلف آثاره المكيفة ، وأهم من ذلك كله تدخل النظرية التي تجري على أساسها هذه العملية .

ودعونا نكرر مرة أخرى أن هذا الاختيار للمادة التي تثبت الواقعة التاريخية لا يأتي اعتباطاً ، فالروابط التي نتكلم عليها ، والتأثيرات المتبادلة الخ ، لها وجود موضوعي ، ( والمؤرخ لا ينتجها ولا يكتشفها . والتصور الذي يزعم هذا تصور مثالي ، وتصور لا يمكن إقامة الدليل عليه على أي حال ، إذا افترضنا الوضع الوجودي الذي سلمنا به للواقعة التاريخية ) . أنها جزء من الواقع الموضوعي ، جزء من التاريخ . والذي يسهم به المؤرخ في إثبات واقعة ما هو الاختيار الذي يقوم به من بين وثائق موجودة موضوعياً ، من بين الروابط والتأثيرات المتبادلة ، التي تظهر موضوعياً الخ . وتختلف معايير الاختيار باختلاف النظرية الكامنة وراءها ، شأنها في ذلك شأن المعيار المحدد للبناء الداخلي لكل وثيقة . ولا مناص من استناد هذا العمل إلى نظرية ما ، إذا افترضنا مقدماً أن الاختيار ليس وليد الصدفة ، لأننا في هذه الحالة سنقرب من غير المعقول . وواضح أن هذه الاختيارات المتنوعة تأتي بنتائج متنوعة نظريتها .

اذن فنحن — على عكس ما يزعمه الرأي الوضعي المتحيز — لاجمع الوقائع في داخلنا أولاً ، « دون فروض مسبقة » ، ثم ندعها تتحدث عن نفسها ، متجنبين تعليقات المؤرخ التي تشوه الواقع . نقول على عكس هذا ( وهذا أمر يمكن فهمه على أساس تحليل عمليات الفهم ، وعلماء التاريخ أشد الآن وعياً بهذا منهم في أي وقت مضى ) ، أن إدراك الوقائع حسياً وصياغتها كما نتيجة لتأثير النظرية ، فالنظرية تسبق إثبات الوقائع ، وإن كانت من ناحية أخرى مبنية عليها .

وهكذا بلغنا نهاية تحليلنا للمعاني الكامنة وراء هذا السؤال : « ما الواقعة التاريخية ؟ » ، فقد عددنا ، أو على الأقل تصورنا ، خمسة موضوعات قابلة للبحث حول هذه الأسئلة ، وهي :

أولاً : حين نتساءل « ما الواقعة التاريخية ؟ » فإننا نسأل أنفسنا ما الذي يمكن أن يشكل هذه الواقعة ؟ والجواب : أنها قد تعني بالأحداث ، بالاجراءات ، وبآثارها في الحياة الاجتماعية .

ثانياً : من الضروري أن نعترف أي هذه الوقائع جديرة بأن توصف بأنها « تاريخية » . والجواب : أن معيار التمييز يمكن أن يكون مدى ارتباط الوقائع المعينة بالتطور الاجتماعي . وهذا يقتضي إقامة أطر للعلاقات .

ثالثاً : السؤال هنا يتعلق ببناء الوقائع التاريخية ، وعلى الأخص بصحة التمييز بين الوقائع البسيطة والمركبة .

رابعاً : نسأل أنفسنا : ما الوضع الوجودي موضوع التاريخية ؟ أي قطعة من التجازات الماضي ، أم حديث حولها ؟

خامساً : نسأل ما وضع الواقعة التاريخية من الناحية الفنوسيلوجية ؟ هل الوقائع التاريخية وقائع « خام » ، أم أنها نتيجة تدخل النظرية ؟

ومراجعة هذه المفاهيم الخمسة السؤال عن الواقعة التاريخية تنحج لنا استعراض عدد كبير من المشكلات - بقي الآن أن نواجه المشكلة التي ظهرت أثناء تحليل المفهوم الأخير ( الخامس ) للسؤال ، أي أن نحيط بمشكلة اختيار المؤرخ للوقائع - ولكن إذا كنا أثناء تحليل المفهوم الأخير للسؤال قد ركزنا اهتمامنا على اختيار الوقائع المثبتة للواقعة التاريخية فمازالت هناك عقبة تعترضنا ، هي مشكلة اختيار الوقائع التاريخية من بين العدد الكثير من الأحداث ، ومن الإجراءات وآثارها ، مما لم يدخله المؤرخ في حسابه ، لأنه لم يسلكها في باب الوقائع التاريخية ، هذه المشكلة مرت بنا أثناء المناقشة ، ولكن نظرا إلى أهميتها لابد لنا من العودة إليها ، تنسيقا للتجارب .

ومنا يجعل التمييز بين الوقائع أوجب أن مشكلة اختيار الوقائع التاريخية - إذا نظرنا إليها على هذا النحو - وثيقة الارتباط بموضوع ناقشناه من قبل ، موضوع إثبات الوقائع التاريخية عن طريق الاختيار بين الوقائع التاريخية . والواقع أننا حين نواجه هذا الاختيار بقصد البسبب الواقعة التاريخية ، ومن ثم الباثنا من وجهة النظر الفنوصيولوجية أن شئت ، فإننا ننتقل بحكم الحالة إلى اختيار الأحداث ذات الأهمية التاريخية ( الوقائع التاريخية ) من بين أحداث جملة لا أهمية تاريخية لها ، ولكن العكس كذلك صحيح ، فلحين حين نشرع في اختيار الوقائع التاريخية من بين الأحداث التاريخية ( ونحن نفعل هذا دائما ، وتقيم بحثنا على نظرية أو فرض يشكل إطار العلاقات هنا ) ، فإننا في الوقت نفسه نحدد معنى اختيار الوقائع التاريخية المثبتة للواقعة المعنية .

ولو أننا كمؤرخين وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام الماضي ، دون أن يكون لدينا مفهوم أو نظرية أو فرض ما ، يصوغه الفكر عن عهد ، أو تفرضه الضرورة العملية للقائنا كما هي الحال اليومية ، لأخذتنا الحيرة إزاء الغرض التي تخلفها كثرة الأحداث وكثرة نتائجها على السواء ، ذلك أن كلا منها يستطيع أن يدعي لنفسه دور الواقعة التاريخية ، وفي هذه الحالة فإننا إذا استعملنا عبارة « الواقعة التاريخية » لنعني بموضوعة الحدث ( فكل حدث - بهذا المعنى - واقعة تاريخية ) ، بل نعني بحدث موضوعي محدد على نحو ما ، خصوصا لأننا - بحكم تأثيره في غيره من الأحداث ، وتأثيره تبعاً لذلك في التاريخ - نقر بأهميته حين نرقى به إلى مستوى الواقعة التاريخية ، أو إلى مستوى ذلك النوع من الوقائع التي يتناولها علم التاريخ . وهذا بدوره يبرز الطابع المعقد للواقعة التاريخية ، التي هي قطعة من التاريخ ، من حيث وضعها الوجودي ، قطعة من الواقع الموضوعي ، ولكنها من حيث وضعها الفنوصيولوجي نتاج التأثير المتبادل والخاص بين الذات والموضوع ، كما هو الشأن في جميع الحالات الأخرى للعلاقة الإدراكية . فالواقعة التاريخية - مع بقائها عنصرا قويا من الواقع الموضوعي ، موجودا خارج كل العقول التي تحيط علما به ، ومستقبلا عنها - هي في الوقت نفسه نتاج خاص يخضع تكوينه لتأثير المؤرخ ، إذن فليس صحيحا أن الوقائع التاريخية تنبثق تلقائيا من جسم أحداث أخرى أو عمليات تاريخية أخرى ، لأنها مهمة ، ولأن



أثرها بعيد ( كما يزعم الوضعيون ) ، ولا هو صحيح أن على المؤرخ أن يقتصر على ملاحظتها وعرضها وكان في أهميتها ما يكفي من الانقاص عن ذاتها . فهذا الموقف المعاني في التبسيط ضعيف لا يثبت للهجوم ، إذا تذكرنا ما أحرزته النظريات المعاصرة المتعلقة بالمعرفة من تقدم . فما من حدث يستطيع أن « ينتزع » نفسه بنفسه من بين غيره من الأحداث . ومآله أن يظل حدثا لا أكثر بين أحداث كثيرة . و « أهمية » حدث ما ، و « وثوق صلته » بالموضوع ، إنما هو « حكم قيمة » يقتضى وجود طرفين لاطرف واحد فحسب : الموضوع الذى يجرى تقويمه ، والذات الذى يقوم به . وهذا واضح لكل من يفهم كنه العلاقة الإدراكية ، والدور الذى يلعبه فيها العامل الذاتى الوثيق الصلة من باب أولى بعلاقة التقويم . كذلك لا ينبغي أن يلهى أحد ، ولا هو مما يتعارض مع المادية في نظرية المعرفة ، ولا مع نظرية الانعكاس ( على الأقل في أحد تفسيراتها المقررة ) ، إذا قلنا أن الواقعة نتيجة ، أو حصيللة لنظرية ما . لأنه أساس نظرية ما يشرع المؤرخ في أن يختار من بين العمليات والأحداث التاريخية ذلك الحدث الذى سيرفعه إلى مستوى الواقعة التاريخية . وهذا سبب الخلاف الملحوظ بين المؤرخين حول هذه النقطة ( أى أن اختيارهم لا يلقى التسليم الإجماعي ) ، كما أنه السبب في أن واقعة ما قد ترفع إلى مقام الواقعة التاريخية في وقت آخر ، أو بواسطة مؤرخين ينتمون لمدرسة أخرى ، وإن تكن هذه النقطة قد تفاضى عنها الناس في أوقات معينة أو لم تلق اهتماما بين مؤرخي مدرسة بعينها باعتبارها خلوا من الأهمية التاريخية .

فلم هذا ؟ للإجابة عن هذا السؤال ننقل هنا رأى المؤرخ « أ. هـ. كار E.H. Carr » الذى يصفه أنه قال في الموضوع ما يجب أن يقال بروح الفكاهة البريطانية الصادقة :

« حين نقرأ كتابا في التاريخ ننصت دائما إلى همسه . فإن لم نسمع شيئا فلما إنك أصم ، واما أن مؤرخك ممل غاية الإملال . فالوقائع في حقيقتها ليست كالسمك على لوحة السمك . إنما هي أشبه بالسمك السابح في محيط هائل ، ومحيط بعيد المنال أحيانا ، وما يصيده المؤرخ منه متوقف إلى حد ما على الصدفة ، ولكنه يتوقف قبل كل شيء على ذلك القسم من المحيط الذى اختار الصيد فيه ، كما يتوقف على الطعم الذى يستعمله في الصيد ، وهذان العاملان يحددان بالطبع نوع السمك الذى ينوى صيده . ويمكن القول على العموم أن المؤرخ سيحدد نوع الوقائع التى يتشدها . فالتاريخ معناه التفسير . صحيح أننى لو قلبت السرد جورج كلارك على رأسه وقلت إن التاريخ « نواة صلبة من التفسير يحيط بها لب من الوقائع المشكوك فيها لكأن قولى بلا ريب متحيزا وخطا ، ولكن لعله لا يكون أشد تحيزا وخطا من دعوى الكتاب الأصلية » ( ١ ) .

ثم نجد المؤرخ العظيم « لوسيان فيفر » يكمل تعقيب « كار » على نحو ما ، إذ يقول :

« أسمعت ما يقوله شيوخنا ، المرة بعد المرة ، من أنه « ليس للمؤرخ الحق في اختيار الوقائع ؟ فباي حق ؟ وباسم أى مبدأ ؟ أن الاختيار في رأيهم جريمة ضد « الواقع » ، وإذن فهو ضد « الحقيقة » . وهم يرددون هذه الفكرة نفسها دائما : كمكبات صغيرة من الفسيفساء مميزة ومتناسقة في دقة ، ومصقولة صقلا جيدا ، ثم أطاح زلزال بالفسيفساء ، وردمت المكبات تحت التراب ، فلنخرجها من الردم ، ولنحذر أول ما نحذر أن ننسى مكبا واحدا منها . لنجمعها كلها . لنجذب الاختيار .. كان معلومنا يقولون هذا ، وكان التاريخ – لمجرد الصدفة التي دمرت أنرا وحمى آخر ( ولنضرب صفحا مؤقتا عن أعمال الانسيان ) – ليس اختيارا . وماذا لو لم يكن هناك غير هذه الصدفة ؟ أن التاريخ اختيار ما في ذلك ريب ، أهو اختيار جزافي ؟ لا . أهو مسبق التصور ؟ نعم .

• ان أى عمل علمي محال بدون نظرية أساسية ، بدون نظرية مسبقة التصور . فالنظرية بوصفها منشأ للروح التي تشبع حاجتنا للفهم هي تجربة العلم نفسه . والمؤرخ الذي يأبى التسليم بأن الواقعة بشرية ، والذي يعلن الخضوع التام لهذه الوقائع ، كأنها ليست من صنعه ، وكأنها ليست من اختياره ، في المقام الأول ، بكل معاني كلمة « اختيار » ( وهي لا يمكن إلا أن تكون من اختياره ) ، هذا المؤرخ ليس الا صانعا ، قد يكون صانعا ممتازا ، ولكنه ليس مؤرخا (١) .

• هذه العبارة التي نقلتها طويلا بعض الشيء ، ولكنها رغم ذلك جديرة بالنقل . ذلك لأن صاحبها من المؤرخين الخالص ، ثم أنهما يستعملان الحجج وراء النظرية التي يعرفان مضامينها . قد تميل الى القول بأراء المؤرخين الوضعيين حين نسمع كلامهم . ولكننا لنبلك الا أن نؤمن على رأى المجددين . وقصاراتنا أن نود اضافة تحذيرات مميّنة عن الأخطار التي تعرض لها اذا تجاوزنا بعض الحدود ونحن نسير في خطاهم . ولكن هذا لا يبطل مايقولون بحال .

والواقع أن السؤال الذي يخلقه هذا الوضع هو المسئلة التالية ، وهي موضوعية بلا ريب : ذلك أن حياة الناس يتخللها عدد لا حصر له من الأحداث والعمليات ومنتجاتها ، مما يمكن أن يكون وقائع تاريخية ، وأكثر من هذا أن بينها ارتباطات ، ارتباطات واعتمادات وتأثيرات متبادلة ، وأقل القليل من هذا العدد – دون غيره – هو الذي يوصف بالواقعة التاريخية ، فلم هذا ؟

والجواب الواضح أن هذا القليل هو الوقائع المهمة التي لعبت دورا خاصا في تطور المجتمع . وهذا جواب لاغبار عليه . ولكن أنى لنا أن نعرف هذا ؟ فالوقائع في ذاتها لا تحمل سمات مميزة . وأكثر من ذلك كما أسلفنا أن آراء المؤرخين لهذا تنضارب أحيانا تضاربا ملحوظا ، وخاصة حين يكتبون في فترات مختلفة . والارتقاء

بوقائع لم يركز عليها فيما مضى الى مستوى الوقائع التاريخية ، واختلاف وقائع اثيرت من قبل ذات أهمية ثم أنزلت بعد ذلك الى مستوى الأحداث اليومية الخالية من المعنى التاريخي ، كل هذا من شأنه أن يزيدنا تشككا فوق تشكك .

من اذن يقرر أن بعض الوقائع دون غيرها الحق في أن توصف بأنها تاريخية ؟ انه بالطبع الرجل الذي يدرس الصلبة التاريخية ، هو المؤرخ . ولكن هذا ليس عملا فرديا تحكميا من أعمال الفردية أو الذاتية الخالصة ، فمثل هذا العمل لثمة فرد ، ذلك أن مؤرخنا نفسه « نتاج » اجتماعي (١) ، أنه هو نفسه خلق بروح نظرية ما ، وهو ببسط هذه النظرية ويفسرهما . واختيار الوقائع يعتمد على الخلق التاريخي الذي يقوم به المؤرخ للنظرية التي يعلنها ، مادامت واقعة اجتماعية ، وهكذا بالبسط تسبق النظرية الوقائع .

اذن فالتفسير هو الذي يرفع الواقعة البسيطة الى مستوى الواقعة التاريخية ، أو هو الذي يبعث بها عن هذا المستوى . وهنا نسأل كما سأل لوسيان فيفر : جزافا ؟ لا بالطبع . أولا لأن الأحداث نفسها ، ومسيرها ، الخ ، لها طابع موضوعي ، فهي ليست نتاج عقل المؤرخ . ثانيا لأن يدى المؤرخ مغلولتان بالنظرية التي يلتزم بها . انه الشخص المدرك لتوجهاتها أكثر منه السيد المتصرف كيف يشاء . ثالثا لانه على أى حال يتكيف اجتماعيا وفق مصالح زمانه ، ووفق طبقته الاجتماعية ، الخ ، ولكنه يدخل مع هذا المصلد الاجتماعي عاملا ذاتيا في الوعي التاريخي . وإذا كانت هذه الآراء تبدو جريفة فلنقل مرة أخرى انها ليست بحال خطيرة لتتوقف عند المادية ، ولا ضد نظرية الانعكاس . ثم اننا نطلق كسبا هو التوافق مع النظرية المعاصرة للمعرفة ومع النتائج التي أحرزتها علوم خاصة كاللغويات وعلم النفس وسيبولوجية المعرفة الخ ، التي تبلغ آفاق ميدان معرفة الانسان وعملية الوعي بفضل واقعية أبحاثها .

اذن فالمؤرخ هو الذى يتولى الاختيار ، حتى اذا لم يكن الاختيار جزائيا . فهو ينتقى الوثائق التي تعضاض لتؤلف اتجاه الواقعة ( وبهذا المعنى يشبهها ) . وهو ينتقى الوقائع التاريخية من بين وقائع الحياة العادية . لذلك كان من الانصاف أن نؤكد أنه ليس هناك شيء اسمه الواقعة « الخام » ، فالوقائع الخام هي أيضا نتيجة اجتهد نظري ، لا بل أن رفعها الى مرتبة الواقعة التاريخية ليس نقطة ابتداء ، بل هو وصول ، أو نتيجة . فحين نتناول عبارة سهلة مثل هذه : « وقعت معركة جرونفالد

---

(١) في كثير من النقد الذى كتب عن طرقاتي في الاثنوبولوجيا نرى على الكتاب استعمال هذا اللفظ الكريه « نتاج » في هذا السياق . ولاريب في انه ينتمى الى مصطلحات الماركسية ، ولكن اللفظ « بليس » عاما للفكرة التي قصد أن يبرر عنها ، ولست أجد خيرا منه . وكل اللحن بالماركسية سيرون انه لا محل للظن بأننى استعمال اللفظ استعمالا عاما أو مبسطا ببسطة مفرط ، فالشككة ان مشكلة في الظاهر فقط .

في سنة ١٤١٠ هـ ، وهي عبارة صحيحة أو غير صحيحة حسب اتفاق القول مع الواقع أو عدم اتفاقه ، فإن الاعتراف بها واقعة تاريخية إنما هو نتيجة لتطبيق نسق للعلاقات ( التاريخ السياسي ) ونظرية مقررّة . وإذا كانت وقائع ما ( كواقعة معركة جرونفالد ) وقائع تاريخية معترفا بها من زاوية أي نسق نظري فذلك لا يغير من الأمر شيئا ، فهي مازالت وقائع غير « خام » ، تاريخية في ذاتها ، دون أن يجرى الاختيار المناسب لها ، ابتداء من التفكير النظري المحدّد .

وفي ضوء التعليقات التي أسلفنا ، نستطيع أن نختم أفكارنا بفقرة بليغة نقلها عن « أ . هـ . كار » :

« إن المؤرخ والواقعة التاريخية كليهما ضروري للآخر . فالمؤرخ بدون وقائعه محروم من الجذور ، محروم من القيمة . والوقائع بدون مؤرخها ميتة لامعنى لها . لذلك كان أول جواب لي عن السؤال « ما التاريخ ؟ » هو أنه عملية تفاعل مستمرة بين المؤرخ ووقائعه ، وسوار لا ينتهى ، حوار ماضٍ وحاضر (١) » .

#### الكاتب : آدم شسلاف

ولد في لوفل عام ١٩١٢ . يشغل الآن منصب مدير معهد الفلسفة وعلم الاجتماع بالأكاديمية القومية للعلوم . وكان أستاذا للفلسفة بجامعة لوند عام ١٩٤٥ ، وجامعة وارسو عام ١٩٤٨ . وركز مؤلفاته العلمية حول الصيغاتيكا ، والانتروبولوجيا الفلسفية ، ومنهجية العلوم الاجتماعية .

#### المترجم : الأستاذ فراد النوروس

دبلوم المعلمين العليا ١٩٢٠ . دبلوم معهد الدراسات العليا للآثار المصرية ١٩٢٨ . دبلوم معهد الدراسات العليا للمعلمين ١٩٤٧ . مؤلف « أدباء الانجليس الماسرون » ١٩٤٧ ، الأنجلو المصرية .

مترجم : رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان ( الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ) - أبريل : حياة شلى لاندريه مودوا ( الأنجلو المصرية ) . طريق البخور لصموئيل بطار . تاريخ الاشتراكية البريطانية لماكس بير جردان . يونيو/أبريل في مصر لكريستوفر هيرولد ، التاريخ الاجتماعي للثورة الفرنسية لينورمان هابسن . الوالد والولد لدموند جوس .

# ... ونهاية التاريخ



بقلم • روبرت تكرر  
ترجمة • محمد علي أبودرة

## المقال في كلمات

نهاية التاريخ في نظر ماركس ، الذي اقام فلسفته على أن التاريخ عملية تآزر ذاتي للجنس البشري ، لا تعني انتهاء العالم ، ولكنها تعني نهاية عملية تطور البشرية ببلوغها سن الرشد أو درجة الكمال . ويرى ماركس أن عملية تحقيق الذات أو بلوغ الإنسانية الكاملة لا يمكن أن يحلها فرد بنفسه ، بل لابد أن تعمل في إطار تحققي الذات للجنس البشري بأسره . وقد تناول ماركس مشكلة العلاقة بين الذات والمادة من زاوية جمالية تنسم بالصيغة الإنسانية . وطريقه إلى ذلك السيطرة على القوى الانتاجية ، وتوفير حرية الانتاج بطريقة انسانية . ان الإنسان ، في نظر ماركس ، مستجلى له في النهاية بشاعة غريزة التملك ، ويصل في نهاية المطاف إلى التغلب حتى عن الشيوعية نفسها ، التي هي تملك جماعي ، وذلك لتعمل محلها النزعة الانسانية الإيجابية ، التي هي الهدف النهائي للتطور البشري . ويهدف ماركس إلى إيجاد يوتوبيا عالية .

ويأخذ عليه بعض النقاد أنه لم يذكر إلا النزر اليسير عن الأوضاع في مجتمع ما بعد التاريخ ، ولكن ماركس إنما وضع مفهومات عامة ترك لسبق الحوادث تفسيرها . فمفهومه عن « إلغاء العمل الكادح » في مجتمع ما بعد التاريخ قد أخذ يتحقق فعلا باستخدام التسيير الذاتي وإطلاق القوى الانتاجية للذرة من مقالها . ولكن هل يتحقق

لغلول ماركس في وجود يوتوبيا عالمية ؟ أو قد تسير البشرية ، في هذا العصر المملوء بالقلق والخاوف والشكوك ، الى نهاية محتومة ؟ ان الاختلاف بين ماركس وغيره من زعماء اللاعنفس ، امثال غاندى ومارتن لوتر ، هو تصويره ان القوة والعنف الثوريين هما وسيلة خلق مجتمع جديد تسوده الرفاهية ، ومبالمته في تقدير التطور المادي والتكنولوجي .

ان الاحتفال بالذكرى الخمسين بعد المائة لمولد كارل ماركس ( ١٨١٨ - ١٨٨٣ ) مناسبة اكثر ملائمة لاحياء ذكراه ، مما كان يمكن ان يكون الاحتفال بمرور مائة عام على مولده . ففي مايو ١٩١٨ كان العالم مشغولا بالحرب ، ولم يكن يصنع كثيرا يمثل هذه الاحتفالات . وكانت جماعة من الثائرين الماركسيين قد قبضت آنذاك على زمام الحكم في روسيا ، ولكن مستقبل تلك الثورة الروسية ، وغيرها من مثيلاتها ، كان اذذاك غامضا . كما ان بعض كتابات كارل ماركس الفلسفية الاولى ، التي قدر لها ان تزيد الى حد كبير من فهمنا لاصل الماركسية ومعناها ، كانت لاتزال محفوظة بين الاضابير ، غير معروفة الا لغير قليل جدا . ولم يكن قد آن الاوان بعد لتحديد اهمية ماركس التاريخية . اما الآن فالظروف مواتية بشكل افضل لتحديد هذه الاهمية .

ان اهم ما نشر منذ ذلك الحين من كتابات ماركس الاولى هي مخطوطات ١٨٤٤ ، الاقتصادية والفلسفية ، ففيها دون ماركس الشاب اول عرض منهجي متماسك للماركسية ، في مفاهيم مشتقة الى حد كبير من الفلسفة الالمانية بعد « عمانويل كانت » ( ١٧٢٤ - ١٨٠٤ ) ، وعلى الاخص فلسفة هيغل ، بعد ان كشف ماركس عن الغموض الذي يكتنف المعنى « الخبيء » في « فينومينولوجيا الروح » لهيغل ، صاغ فكرته الخاصة عن التاريخ باعتباره عملية تطور ذاتي للجنس البشرى ، تبلى ذروتها في الشيوعية . والانسان ، طبقا لهذا المفهوم ، منتج اساسا ، والانتاج المادي هو الشكل الاول لنشاطه الانتاجي ، لان الصناعة هي تجسيد القوى الانتاجية لدى الجنس البشرى ، او مظهرها الخارجي . وعلى مدارج تاريخ الانسان الذي يصفه ماركس بأنه « تاريخ الانتاج » ينشأ حوله شيئا فشيئا عالم من الالهياف المنتجة او المتجنسة . وتفسى الطبيعة الاصلية او تكسوها « طبيعة انسانية » من صنع الانسان ، او « طبيعة انتبها التاريخ » . وقد آمن ماركس بان هذه هي الصيغة الحققة او العلمية

من خطاب الالاه R. O. Taylor في لقوة « كارل ماركس اليوم » التي اقامتها الجمعية الالمانية للونيكس في ترابيز Taylor في ١٩٦٨ .

التي يماه بها عرض فكرة هيجل . ألم ير هيجل أن تاريخ العالم هو « تاريخ الإنتاج » الذي ينتجه روح العالم ؟ ولكن الخطأ الذي وقع فيه هو إحاطة العملية بالضموض ، وذلك إذا نظر إلى النشاط الانتاجي على أنه نشاط « عقلي » أساسا . ولكن ينتقل المرء من الضموض إلى الواقع ، ومن الفلسفة إلى العلم ، فما عليه إلا أن يقلب فكرة هيجل وأسا على عقب . فإذا فعل تبين له أن الصورة التي رسمها هيجل للروح التي تحلق عالما كانت مجرد صورة مشوهة رسمها فيلسوف لواقع التاريخ ، وهي أن الانسان ، الانسان الذي يعمل ، يخلق عبر القرون عالما في أنشطة « مادية » منتجة . لذلك لم يكن ثمة مناص من أن يطلق ماركس على المذهب الهيجلي ، محورا على طريقتة الخاصة ، اسم « الفكرة المادية للتاريخ » .

وجريا على منهج هيجل الأساسي صور ماركس في مخطوطاته « تاريخ الانسان الانتاجي » على أنه كذلك تاريخ « الاغتراب » . فقد افترض أنه من طبيعة الانسان أن يكون « منتجا حرا واعيا » ، ولكنه ، أي الانسان ، لم يكن حتى ذلك الحين قادرا على الانطلاق في التعبير عن نفسه في نشاط انتاجي ، بل انساق إلى الانتاج تحت ضغط الحاجة وبفعل الحرص ، الذي أدى به إلى الرغبة في الجمع والاقتناء ، ثم انتهى إلى أن يكون في البرجوازية الحديثة تكديسا لرأس المال ، ومن ثم كان نشاطه الانتاجي على الدوام قسرا لاطوعا ، أي أنه كان « عملا » أو « كدسا » . ولما كان الانسان حين يعمل قسرا يباعد بين نفسه وبين طبيعته البشرية ، فإن العمل « عمل مغترب عنه » . ويصبح الهروب من « العمل المغترب » في النهاية ممكنا من الوجهة المادية ، في مرحلة التطور التكنولوجي التي خلقته الصناعة الآلية الحديثة . أما وسيلة الهروب فهي استيلاء العمال ، عن طريق الثورة ، على القوى الانتاجية وإخضاعها للسيطرة الجماعية . ولسوف يتيسر للانسان في النهاية أن يفتح في حرية بعد تملكه من جديد ، عن طريق الثورة ، لوسيلة الانتاج المادي هذه ، وهي التي تتمثل في الصناعة . فالشيوعية عند ماركس لم تكن تعنى نظاما اقتصاديا جديدا ، بل كانت تعنى نهاية الاقتصاديات في مجتمع يستطيع فيه الانسان ، وقد تحرر من الكدح ، أن يحقق طبيعته الخلاقة ، في حياة يتمتع فيها بوقت فراغ ، ومن ثم كان تعريفه للشيوعية بأنها « علو الانسان على الاغتراب الذاتي » . ورأى أنها الوضع الحقيقي المستقبلي الذي كان قد صوره هيجل بشكل غامض في ختام « الفينومينولوجيا » ، حيث تعود الروح ، بعد أن بلغت المعرفة المطلقة ، إلى نفسها من المكان الذي كانت قد أقصصت إليه ، « مؤتلفة كل الالتلاف مع نفسها في آخرتها » .

تلك في عبارة موجزة هي الماركسية كما بسطها ماركس في الأصل ، هذه النظرة إلى التاريخ هي التي فصلها ماركس وانجلز في كتاباتهما الكثيرة فيما بعد . وطبيعي أنه قد لحقها الكثير من الاضافة والتعليق ، ولكن فكر ماركس ، مثله في ذلك مثل معظم المفكرين ذوي الأصالة العظيمة ، قد تميز أساسا بالاستمرار . صحيح أن

بالمصطلحات الفنية قد تثيرت بعض الشيء في كتاباته التي جاءت بعد ذلك ، ولكن  
النظرة العامة الى العالم لم تتغير - والحق أن كتاب « داس المسال » الذي نشر في  
١٨٦٧ لم يكن الا الشكل الذي انجر ونشر به آخر الامر ، للكتاب الذي كان قد  
شرع في تأليفه في مخطوطاته عام ١٨٤٤ .

ومن ثم فنحن الآن أقدر على أن نرى في ماركس ( بوضوح أكثر بكثير مما كان  
يمكن أن يتيسر لأي إنسان قبل نصف قرن ) وريثا ومثلا للعصر الذهبي للفلسفة  
الألمانية ، التي بدأ بالفيلسوف كانت وتابع سيره مع شيلنج وفشته وهيجل الى من  
جاء بعدهم من فلاسفة متباينين . ولست أقصد أنه ينبغي علينا أن ننظر اليه  
كفيلسوف فحسب ، أو أن ننظر الى الماركسية نفسها كظاهرة فلسفية لاغير ، لأن  
ماركس كانت له رسالة تنبؤية ، فإن التعاليم التي استمدتها من الفلسفة ، ورأى فيها  
علما ، استقبلت على نطاق واسع على أنها دين جديد ، وأصبحت هي الأيديولوجية  
الحزبية للحركات التي تهدف الى الثورة ، وهي في قرننا العشرين هذا تمثل  
أيديولوجية نظم الحكم الثورية التي تعمل باسم ماركس . على أنني لست هنا معنيا  
« بالماركسية » بوصفها أيديولوجية حزبية . ولكن بماركس بوصفه مفكرا ،  
وبالماركسية كما فهمها هو . وسؤال هو « ما هي أهم رسالة له الينا الآن ؟ » . أما الجواب  
الذي أود أن أقدمه فهو أن ذلك الجانب من فكر ماركس الذي ستظل أهميته باقية  
الى حد يفوق كل ماعداه ، والذي يتصل بمصرنا الحاضر أوثق اتصال ، هو الجانب المثالي  
« اليوتوبى » ، وهو الجزء الذي يمكن أن نسميه اليوم « مستقبالية » ماركس  
(futurology) . ولكي أوضح هذه الفكرة أود أن أتوسع قليلا في تحديد موقفه .

إذا سألنا أنفسنا : من أي نوع من الفلاسفة كان ماركس ؟ كان من السهل أن  
نجيب بأنه كان أحد فلاسفة التاريخ . لأن مختلف محاولاته لوضع تعريف عام  
لموقفه كانت كلها أقوالا متعلقة بالمسار التاريخي ، ولكننا اذا وصفنا ماركس بأنه أحد  
فلاسفة التاريخ فاننا نعبر بذلك عن حقيقة تكاد تكون سطحية ، لأن التاريخ في حد  
ذاته لم يكن الهدف الأول للنظريات التي صاغها ، بل كان هدفه الأول هو الإنسان  
بوصفه جنسا أو « جنسا - كائنا » . ونظرية الإنسان هي الأصل الذي نشأت منه  
نظرية ماركس في التاريخ - فهو يعرف التاريخ بأنه عملية نمو الجنس البشرى .  
وقد عبر عن ذلك تعبيرا محكما في مخطوطات ١٨٤٤ فقال : « وكما أن كل الأشياء  
الطبيعية يجب أن تصير » ، فإن الإنسان كذلك له عملية التصيرة الخاصة به « وهي  
التاريخ » .

هذه الطريقة في التفكير تضمنت معنى مهما هو أن للتاريخ نهاية ، لا بمعنى  
انتهاء العالم ، لأن ماركس افترض ، في براءة من لم يعرف العصر النووي بعد ، أن  
الإنسان وعالمه سوف يبقيان لوقت غير محدود ، إن لم يكن الى الأبد ، فنهاية التاريخ  
في رأيه تعني نهاية عملية نمو البشرية ، أي بلوغها سن الرشد . ذلك أنه على الرغم



من أن الحياة وتقلباتها ستستثمر ، وضع التسليم بأن بعض أنواع التعبير قد تظل تحدث ، فإن ويلات النمو عبر التاريخ ، والصراع الطويل الذي عايناه الجنس لكى « يصير » - وهو صراع طبقي فى معظمه - سوف ينتهى آخر الأمر . ان مراحل تطور التاريخ الذى ربط ماركس بينها وبين أساليب إنتاج متعاقبة - من كدح الرقيق فى العصور القديمة ، الى عمل عبيد الأرض فى العصر الاقطاعى ، الى العمل المأجور فى عصر البرجوازية - هذه المراحل سوف يخلفها أسلوب جديد بشكل جذرى من النشاط الانتاجى ، والى جانب هذا الأسلوب من النشاط الانتاجى يسير شكل جديد تماما من الجماعة البشرية غير الخاضعة للانحلال والانهايار الديالكتيكين اللذين أدركا ، بالضرورة ، كل الأشكال التاريخية للمجتمع . وعلى حدى من هذه الفكرة الرئيسية الراسخة فى ذهن ماركس ذكر فى مقدمة كتابه « نقد الاقتصاد السياسى » أن التكوين الاجتماعى البرجوازى القائم لابد أن يضع نهاية لمرحلة « ما قبل التاريخ » بالنسبة للمجتمع الانسانى ، وكأنه أراد أن يقول ، بعبارة أخرى ، ان الثورة الكبرى القادمة سوف نبشر باستئصال طور « ما بعد التاريخ » بالنسبة لوجود الانسان على هذا الكوكب .

وكان ماركس يعنى ، مع اعظم درجة من الجدية الفلسفية ، ما أورده من فكرة « بلوغ الجنس البشرى سن الرشد » . ذلك لأن التاريخ ، بوصفه « عملية صيرورة » طال عليها الأمد ، سوف يخلو الطريق فى مرحلة ما بعد التاريخ « لكيونة » الانسان ، أى نضجه ، على الصعيدين الجماعى والفردى . ولا يمكن أن يحدث هذا الا آخر الأمر فقط ، ولو أن الأحوال المادية التى تمهد لهذه « الكيونة » كانت آخذة فى النمو على طول الطريق . ذلك لأن الاغتراب لازم البشرية فى كل دورة تاريخية لعملية النمو ، والحق أنه بلغ الدرك الأسفل فى عصر البرجوازية ، حين أصبح الانسان ، بعد أن تحول الى عامل كادح بالئس فى المصانع ( بروليتاريا ) ، أى حين أصبح هذا الانسان كالنا منحطاً مجرداً من شخصيته الانسانية تجرداً تاماً . ومن ثم لم يكن تحقيق الذات أو بلوغ الانسانية الكاملة ، فى نظر ماركس ، مشكلة يمكن أن يحلها أى انسان فرد بنفسه ، بل لا يمكن حلها الا فى إطار تحقيق الذات للجنس بأسره فى نهاية التاريخ . فقبل هذا لن يتسنى لأى فرد أن يبلغ الانسانية الكاملة ، أما بعده فسوف يتسنى بلوغها للجميع .

وقد ألمعنا من قبل الى المفهوم المياري للانسان ، وهو المفهوم المتضمن فى هذه النظرية . فقد نظر الى الانسان على أنه كائن منتج انتاجاً تلقائياً ، يحتاج الى التعبير عن نفسه فى عديد من المجالات أو الاتجاهات ، نزاع فى كل أنشطته الانتاجية ، بما فيها الانتاج المادى ، الى تكوين اشياء « وفقاً لقوانين الجمال » . وكانت هذه الفكرة هى التى تحكم رؤية ماركس لمستقبل ما بعد التاريخ . فلن يقتصر الأمر على تحرير آلات الصناعة لنتج سلماً تسد حاجات جميع الناس ، بل ان الانسان نفسه سوف يتحرر من دافع الولوج بالكسب أو دوام التفكير المطلق فى الثروة ، وهى هواجس كانت

سببا في اغترابه ، وبالتالي يحرر من الطغيان المزودج ، طغيان الحاجة والتخصم؛ ومن سجنه طوال عمره في حياة لادحه ، ومن مختلف اشكاك الاسترقاق في تسميم العمل الملازمة لهذه الحياة . هذا الأسلوب الجديد جنة جذرية في الانتاج اندي ياني فيما بعد التاريخ سوف يشكل قوة الخلق والابداع الطليقة في الافراد الذين ينتجون في ارتباط تمولي .

ولم تقتصر نظرة ماركس الى الانسان على أنه ( في جوهره ) كائن مولع بالفنون، بل انه كذلك تصور علاقته فيما بعد التاريخ « بالطبيعة الانسانية » على اساس فنيه . وعلى النقيض من معظم الفلاسفة الغربيين الحديثين الذين نظروا الى العلاقة بين الذات والموضوع من خلال مشكله المعرفة قبل كل شيء ، نجد ان ماركس لم يكد يتعين هذه المشكله . فيمد ان ترجم هيجل على اساس مادية رأى الاشياء خارج الانسان على أنها تجميعات كثيرة للنشاط الانتاجي للانسان ، متحدا بالمادة الخام التي جادت بها الأرض لتصنع منها الاشياء ، ومن ثم لم يكن هذا الوجود ، وقابلية المعرفة في الحقيقة ، محل بحث . فموقف الشك الديكارتي لا يلائم ماركس . وليف يلائم شعصا لم تكن حاجته الملحة تنجبه الى البات وجود العالم ، بل كانت تنجبه الى تفسير السبب الذي بدا هذا العالم من اجله قبيحا ظلما الى حد لا يحتمل ، ويجب ان يغيره . وهكذا تناول ماركس مشكلة العلاقة بين الذات والموضوع من زاوية جمالية .

وينطوي تحقيق الجنس البشري لذاته على صيغ العالم الذي خلقه الانسان بالصيغة الانسانية ، أي « بحث الطبيعة » بعد مماتها . ولما كانت دنيا الاشياء التي صنعتها يد الانسان والآلة قد أنتجت بفعل السكدح المتسم بالغربة النفسية ، وتم الاستحواذ عليها كأنها ملكية خاصة ، فانها واجهت صانعها عبر التاريخ على أنها « دنيا مفترية » ، وسوف تقضي نهاية التاريخ على هذا الاغتراب والجفوة . وبعد أن نتحقق للانسان السيطرة على قواه الانتاجية ، وحرية الانتاج بطريقة انسانية ، فانه يستطيع أن يعيد تشكيل طبيعته « المشيئة » وفقا لقوانين الجمال . ومن ثم فان الاشياء التي هي من انتاجه لابد أن تؤدي به الى تأكيد ذاته ، بدلا من أن تواجهه كنفائس لذاته وككائنات غريبة عنه معادية له . وبالإضافة الى تطوير ملكاته الانتاجية في سائر المجالات سوف ينمي الانسان قدرته على استيعاب الخبرة الجمالية ، وسوف تتطهر حواسه الخمس من « جشع حاسة الاقتناء » التي كانت تشدها دوما في الماضي والتي منعت الانسان من ادراك وتقدير الطابع الجمالي الكامن في الاشياء الخارجية عنه . وبناء على ذلك خلص ماركس في مخطوطاته ١٨٤٤ الى أن انسان ما بعد التاريخ سوف يتخلى في آخر الأمر حتى عن الشيوعية نفسها ، لأن الشيوعية أيضا ضرب من التملك والملكية : هو الملكية الجماعية ، ذلك أن الانسان سوف يسمو حتى فوق هذا الشكل من الملكية ، عندما تتحقق له انسانيته كاملة . ومن ثم تقرأ في مخطوطات ماركس أن « الشيوعية هي الشكل الضروري والمبدأ الفعال للمستقبل القريب ، ولكن الشيوعية ليست في ذاتها هدف التطور البشري ، وليست هي شكل

المجتمع الأنسانى ، فالنزعة الانسانية الايجابية - لا الشيوعية نقي ذاتها - كانت هى هدف التطور البشرى » .

ان الفكرة القائلة ان للتاريخ نهاية ليست شيئا ابتدعه ماركس ، بل هى فى جوهرها فكرة اخروية تمتد جسورها الى الاديان ، وكل ما فى الامر ان الحياة الآخرة قد أنزلت الى أرضنا فى المؤلفات « اليوتوبية » فى عصر النهضة وعصر التنوير فى القرن الثامن عشر ، وعند اشتراكية بداية القرن التاسع عشر . وقد شاد ماركس فكرته على هذه الأسس كما شادها على الفلسفة الألمانية . ولكن لما كانت الفلسفة الهيجلية هى الزاوية التى كتب منها ، ولما كان قد أضفى على هذه الفكرة فيضا من عبقريته ، فانه استطاع ان يخلق واحدة من أقوى اليوتوبيات الحديثة ارتباطا بالعصر .

وفى رأى أن ما يحجل مستقبلية ماركس Futurology وثيمة الصلصلة بالمشاكل الراهنة هو أولا ذلك النطاق العالمى الذى تنسم به فكرته عن مستقبل الانسان فيما بعد التاريخ . فماركس لم يكن من مصلحي المجتمعات المحلية ، ولم يكن لديه ولح بتلك المشروعات اليوتوبية الضيقة النطاق ، التى تعود فائدتها على مجتمعات محلية ، والتي تجرى كما قال ذات مرة ساخرا « من وراء ظهر المجتمع » ، فهذا فى نظره « يوتوبية » بمعنى منحط . ولما كان فيلسوفا هيجلي التكوين ، لا يرى فى التاريخ معنى الا باعتباره تاريخ العالم ، فقد أصر منذ بدأ يصوغ نظرياته على أن هدف التطور الانسانى لا يمكن الا أن يكون وضعا جديدا للعالم . ومن ثم تصور « يوتوبيا » تنتظم العالم كله ، يكتمل فيها نضج الانسان ، وتسيطر فى النهاية على قواه وعلى الطبيعة ، ويمارس ضبطا واعيا لعملية الحياة الجماعية ، ويعيش حياة خلاقة مطلقة فى مجتمع انساني عالمى .

ولقد وجه بعضهم النقد الى ماركس لأنه لم يذكر الا النزول اليسير عن البناءات الجماعية والترتيبات التنظيمية فى مجتمع ما بعد التاريخ . ولكن قد اوضح فى التحليل النهائى أن هؤلاء النقاد قد أخطأوا وجهتهم ، فضلا عن أن ثمة ما يقال فى الناحية الأخرى على أى حال . فهناك عدد متزايد من المشاكل الانسانية قد أصبحت ، أو هى فى طريقها الى أن تصبح ، بسرعة ، مشاكل عالمية ، لاتقبل الحل فى نطاق جماعة واحدة أو بلد واحد أو اقليم واحد ، مهما كان كبيرا ، على الرغم من أن الحلول قد « تبدأ » ، ولابد أن « تبدأ » ، على الصعيد المحلى فى الغالب . ولا يندرج فى هذا الباب الحرب وسباق التسلح فحسب ، بل هناك أيضا الانفجار السكاني المتعذر وقفه ، والتخلف الاقتصادى ، والنقص فى الطعام ، والعنصرية ، وانتكار حقوق الانسان وحرياته ، وتبديد الثروة المعدنية ، وتلويث التربة والماء والهواء ، الخ . صحيح أنه

يمكن إحراز بعض التقدم في حل مثل هذه المشاكل في الأمم والأقاليم ، ولكن الحلول الكافية لا يمكن وجودها في أي مجتمع محلي قومي أو أوروبي أو أطلنطي أو شيوعي ، أو جماعة تشغل نصف الكرة الأرضية ، بل في مجتمع انساني عالمي . وإى محاولة جادة لرسم معالم « يوتوبيا » في زماننا هذا يجب أن تدعو الى قيام دولة عالمية جديدة على نسق يوتوبيا ماركس .

كذلك نجد مستقبلية ماركس تقسوم على تصورها المحدد الواقعي لأسلوب حياة الانسان في المستقبل ، فان مفهومه عن « الغاء العمل الكادح » في مجتمع ما بعد التاريخ استيق تطورات معينة راحته تحلت اليوم نتيجة للثورة التكنولوجية أكثر منها نتيجة لثورة البروليتاريا التي أندر بها البيان الشيوعي ، ذلك لأن استخدام التيسير الذاتي ( الاوتوميشن ) وإطلاق القوى الانتاجية للثورة من عقاليها يفرسان مشكلة ، هي إعادة توجيه حياة الانسان توجيها عميقا من حياة تركز على العمل الى لون آخر من الحياة . ومع التخلص من قدر كبير من العمل الاقتصادي قد تصبح مشكلة الحياة الطيبة أمرا لامناص منه لنسبة متزايدة من الجنس البشري . فأى لون من العيش سوف يحل محل قدر كبير مما كان يسمى العمل من أجل القوت .

ان يوتوبيا ماركس الجمالية ، أى رؤيته لعالم ما بعد التاريخ الذي يتخذ فيه الوجود الانساني طابع الاستمتاع الخلاق بوقت الفراغ والتعبير الفني ، تمثل على الأقل جوابا واحدا يمكن تصوره . ولكن حيث الناس في مجوعهم قد لا يكون لديهم ذلك القدر من النزعة الفنية الذي نسبه هو الى الطبيعة البشرية ، وقد لا يعتبرون أن الفراغ هو النعيم الكامل غير المنقوص ، كما ارتآه هو ، فاننا لانستطيع أن نأخذ اليوتوبيا التي جاء بها على أنها تعبير عما ليس منه بد . ولكنها تظل ذات قيمة باعتبارها استباقا لما هو ممكن ، والحق أن فكرته عن البيئة الكلية باعتبارها مجالا للنشاط الجمالي ، وعن « الطبيعة الانسانية » نفسها بوصفها العمل الفني الأسمى للانسان ، هذه الفكرة تفد ذات قيمة خاصة في هذا العصر الذي ششهد الكثير من ائلاف الطبيعة وتدمير الجمال الطبيعي وانتشار القبح في المدن . ومن في عصرنا هذا ممن يعيشون في المدن الكبيرة يمكن أن يداخلهم الشك في الحاجة الملحة الى ما سماه ماركس « البحث الحق للطبيعة » .

أخيرا ثمة ما يمكن أن نسترشد ونهتدى به في مفهوم ماركس الأساسى من نمو الجنس البشري وتدرج الانسان في عملية نمو التاريخية الى مرحلة الرشد ، وليس معنى ذلك أنه مازال في استطاعتنا أن نمضى في الأخذ بفكرة نهاية التاريخ السميئة بوصفها قضية مسلما بها ، فاننا ونحن نعيش في الثلث الأخير من القرن العشرين ، ومن ورائنا أكبر الماسى ، وتعتظنا أكبر الأخطار ، لانملك أن نتوقع المستقبل بروح ماركسية ، هي روح التفاؤل « التنبؤى » السعيد . ففي استطاعتنا أن نرى أن

الإنسان قد لا يحقق جماعة عالمية ، وأنه قد لا يحقق السيطرة على قواه ، وأن عدد سكان العالم قد يستمر في الانفجار ، وأن المنصرية والقومية قد تستمران في الاستمرار ، وأن الحياة قد يتفاقم فيها الفقر في مجتمع يتزايد ازدهاره بالسكان ، مجتمع يتسم بالقس والاكراه ، ويخضع لنظام صارم ، لا يابه بالفرد ، « وأن الطوفان الرجعي المزود بالأسلحة النووية قد يعنى نهاية الإنسان في الوقت الذي تتاح له فيه لأول مرة الفرصة ليصبح جنسا واحدا » . كما قال اريك ه . أريكسون منذرا ومحذرا ، ولكن جسامه هذه المخاطر توحى بأنه بدون مثل هذا النضال الذي تحدث عنه ماركس ليلو الخ النضج الانساني فان القضية قد تصبح خاسرة . أريد أن أقول ان أقل ما يحتمل أن تتمخض عنه الأيام هو مستقبل يتخبط فيه الانسان كما كان يفعل الى الآن تقريبا ، ولا تبدى الحكومات فيه من اتساع الخيال والزعامة الأخلاقية أكثر مما كانت تفعل ، ويتابع فيه التاريخ سريره .

ان الشرط الأساسى لتكيف الإنسان تكيفا ناجحا ، بل حتى لبقائه ، قد يكون هو التغيير الجذرى ، وهو تغيير غير مطلوب في التدابير التنظيمية التي يقوم بها الناس من أجل معاشهم ، قدما هو مطلوب في وعى الناس وموقفهم من غيرهم ومن أنفسهم ، وقبما يستشعرون من روح المسئولية نحو الشعوب القاصية ونحو الأجيال المقبلة ، وفي أنماط مضاعفهم وشخصياتهم . وهذا معناه أن ازدياد النمو أمر جوهرى ، وأن الجنس قد يمانى الآن « أزمة نضج » . وإذا كان الأمر كذلك فان أخطر جوانب الأزمة هو عجز الناس عامة عن ادراكها أو التنبيه اليها ، ونزوع معظمهم ، بل حتى قادة الأمم ، الى افتراض أن الأمر لا يستلزم تغييرا كبيرا ، وأن التوسع في الروح الانسانية غير ضرورى ، وألنا نحن البشر الأغرار غير الناضجين قد كبرنا فعلا ، ومن ثم قد يكون ماركس على أوثق صلة بالموضوع حين يحدثنا بأن الأمر ليس كذلك ، وأن الجنس البشرى لا يزال مشغولا بعملية « صيرورته » التاريخية ، ولم يحقق بعد تحقيقا كاملا « كيلوته » سالنا .

ولابد ، في ختام الحديث ، من القول بأن ماركس كان أقدر بكثير على فهم هذه الأساسيات ، وعلى تصور مستقبل انساني غايته الانسانية ، منه على تحديد الوسائل لتحقيقه . فقد بالغ كثيرا في تقدير التطور المادى والتكنولوجى كطلب أساسى لنضج الإنسان ، عجزا منه عن الاحاطة بالصعاب النفسية الضخمة ، وما يترتب عليها من دور دقيق تلعبه الزعامة والتعليم في العملية . ولقد تصور خطأ أن القوة والعنف الثوريين يمكن أن يكونا وسيلة ، لا لتحقيق مجتمع جديد فحسب ، بل كذلك لتوفير الكائن البشرى الجديد الذى يعيش في هذا المجتمع . وهكذا ترك للزعما ، من أمثال غاندى ومارتن لوتر كنج ، مهمة ارشاد الناس الى كيفية تغيير المجتمع دون عنف ، وذلك بتغيير أنفسهم . وأخيرا ، وكنتيجة لهذا ، رأى ماركس أن العملية الثورية ، عملية نضج الإنسان ، يمكن أن تتم بسرعة كبيرة اذا كانت الظروف مواتية .

ولم يدرك أن نمو الجماعة ، مثل نمو الأفراد ، لابد أن يكون عملية طويلة الأمد ،  
يتخللها تحسن جزئي ، وتقدم بين الحين والحين ، وتكسبات لا مناص منها ، ولا يأتي  
النجاح الا في النهاية .

على أن ماركس لم يكن أول من نجح في لفت أنظار الناس الى التميم الموعود  
أكثر مما نجح في هدايتهم الى الطريق الموصل اليه ، فتجلت عبقريته في قدرته على  
استبعاد النهاية . وفي عصر أصبحت فيه الخطط « اليوتوبية » هي الواقعية الوحيدة  
ليس لنا الا أن نولي أكبر عناية لأفكار كبار أصحاب الرؤى في تاريخنا ، ومن بينهم  
كارل ماركس .

---

#### الكاتب : دوبرت كور

استاذ بكلية العلوم الاقتصادية ، ومدير برنامج الحواسبات  
الروسية في برلستين ، ومؤلف « الفلسفة والإسطورة »  
معد كارل ماركس ، و « العقلية السياسية عند السوفيت »

#### الترجمة : الأستاذ محمد علي أبو دية

من كبار رجال وزارة التربية والتعليم السابقين ، وله  
نشاط ملحوظ في المجال الثقافي .

# ماضى المجتمعات الريفية... ومستقبلها

بقلم • هنرى مندراس  
ترجمة • د. سمير نعيم أحمد

## المقال فى كلمات

فى هذا المقال يتحدث الكاتب عن المجتمع الريفى التقليدى الذى يتسم بالافتقار  
الذاتى والتجانس الثقافى والتنوع الاجتماعى الذى كان أساس حياة اجتماعية تتسم  
بالحيوية والاشباع • وقد أضفى هذا التنوع على قرى القرن الثامن عشر والقرن  
التاسع عشر الحيوية النادرة التى تناقض الملل والبلادة التى تغيم على الريف فى هذا  
العصر تناقصا تاما • وأدى النمو السكانى فى القرن التاسع عشر الى ارتفاع مفاجئ  
فى المهن غير الزراعية ، وإلى ارتفاع فى الهجرة الموسمية • وكانت هذه الهجرة فى  
جوهرها ذات طابع زراعى لسكان الجبال وصناعى لسكان السهول • وكان من أثر  
التطور الصناعى أن أخذ الحرفيون والعمال الزراعيون وصغار الملاك يهجرون القرية  
الى المصانع فى المدينة • وتختلف القرية الآن عن القرية القديمة ، إذ لم يبق فى القرية  
الآن سوى المزارعين الكبار والمتوسطين ، كما لم يعد بالقرية أى تنوع اجتماعى •  
واقصر سكان الريف على المشتغلين بالزراعة ، لانتقال الفئات الاجتماعية الأخرى  
الى المناطق الحضرية ، مما أحدث تغيرا فى نطاق المجتمع الريفى • كما كان من نتائج  
التقدم التكنولوجى أن تحولت الزراعة الى الإنتاج التسويقى ، وحل الاعتماد المتزايد  
على الأسواق الخارجية - المدن - محل الاكتفاء الذاتى التقليدى ، وأصبحت الزراعة  
مرتبطة ارتباطا وثيقا بالصناعة •

أما قرية المستقبل فسوف تلتفد خصائص ريفيتها ، إذ سيكون بناؤها حضرية ، ولن تكون قرية بالمعنى المفهوم ، بل سيكون هناك مجتمع ريفي قد يكون على هيئة مدينة صغيرة يسكنها مالا يزيد على ١٠.٠٠٠ نسمة تحيط بهم مزارع وعزب زراعية . وقد يتجه هذا المجتمع صوب استعادة سمات القرية القديمة الأساسية .

تشهد المجتمعات الصناعية حضارة لم تجد لها بعد أطارا ثابتا من القيم الأخلاقية والاجتماعية ، ولا أشكالاً محددة من الحياة الاجتماعية . وهذا هو السبب الذي من أجله مازالت القيم القروية وأساليب الحياة في القرية ذات جاذبية إيجابية قوية واستثارة خاصة في عالمنا الحضري الصناعي . فما زال مجتمع القرية نموذجاً اجتماعياً مثالياً بل مثلاً أعلى . ولكم تود المجتمعات الصناعية أن يصبح لديها شيء مماثل لها في مدنها الهائلة .

إن التحضر والتصنيع اللذين يطرآن على بلد ما يؤديان إلى تعرض الجماعات الريفية فيها إلى تغيرات بعيدة الأثر . فلم تعد الآن نجد في أوروبا الغربية ، إلا في حالات استثنائية نادرة ، مجتمعات قروية تربطها وشائج القرى والترابط وتعود بينها علاقات المواجهة المباشرة ، ويعرف فيها كل فرد جميع الأفراد الآخرين .

وسوف نحاول في هذا المقال ، بعد وصفنا لنموذج الجماعة القروية التقليدية وللتغيرات التي تطرأ عليها اليوم ، أن نرسم صورة تصورية للمجتمع المحلي في المستقبل، مع الإشارة بصفة أساسية إلى الحالات الفرنسية التي درسناها .

### المجتمع الريفي التقليدي

يتصف المجتمع القروي التقليدي بسمات ثلاث أساسية : الاكتفاء الذاتي ، والتجانس الثقافي ، والتنوع الاجتماعي .

ويشتمل الاكتفاء الذاتي على ثلاثة جوانب : جانب ديموجرافي (سكاني) ، وجانب اقتصادي ، وجانب اجتماعي . فالقرويون إذا ما تركوا وشأنهم لا تربطهم بالعالم الخارجي سوى علاقة طفيلة ، وكل شخص في القرية يعرف كل شخص آخر . ولا يرغب القرويون في الزواج من خارج جماعتهم ، صحيح أن الزواج الداخلي لم يكن



مطلقا في أية قرية بمفردها ، ولكن يمكن اعتبار مجموعة ما من القرى ذات نظام زواج داخلي .

وقد سابر الاكتفاء الذاتي الديموجرافي دائما الاستقلال الاقتصادي المطلق . فقد كانت المزرعة التقليدية للأسرة تكفي لاشباع الحاجات الأساسية . وكان من الضروري وجود قدر معين من التبادل ، ولكنه كان مقصورا على حدود القرية ، أو على أكثر تقدير على القرى المتجاورة . وكانت مهن الحداد والحمال والسمكري والنساج وغيرها من المهن التقليدية متوفرة بدرجة تكفي لاشباع احتياجات المزارع والمائلات المستقلة بالزراعة .

وعندما كانت تلك الاحتياجات مشبعة كانت الاتصالات بالعالم الخارجي تتم في أضيق الحدود . وكان يكفي بيع جزء من المحصول لدفع الضرائب أو شراء الملح أو غيره من المنتجات التي تأتي من الخارج . ولكن هذا البيع كان يتم على أساس الاكتفاء الذاتي . فلم يكن القرويون ينتجون بغرض البيع ، ولكنهم كانوا يبيعون الفائض من إنتاجهم . وكانوا أحيانا عندما لم يكن يتوفر لديهم فائض من الانتاج يضيفون المحاصيل التجارية الى المحاصيل الاستهلاكية ، أو يتجه جزء من القوة العاملة للعمل الخارجي للحصول على أجر .

ونظرا لأن القرويين كانوا يعيشون فيما بينهم منعزلين عن العالم الخارجي بدرجة أو بأخرى فقد أصبح لهم أسلوب حياتهم الخاص بهم ، وأصبح لكل وحدة اقليمية صغيرة « ثقافتها » ، ويتفصح هذا التفويت للمجتمعات الريفية أكثر ما يتضمن فيه تعدد اللغات واللهجات التي هي نتاج كل ثقافة وأداتها . وكثيرا ما كانت اللغة والكلمات وكيفية النطق تختلف بين اقليم وآخر وبين قرية وأخرى . واتسع نطاق هذا التنوع ليشمل العادات الجماعية والأفكار والنظرة العامة الى العالم .

ولقد كان هذا الاكتفاء الذاتي الاجتماعي والحضاري يفترض اتفاقا عاما داخل المجموعة الاجتماعية ، فكان هناك اتفاق اجماعي في المعتقدات ووجهات النظر والقيم الخلقية والسلوك . واشتركت كل المجموعات والأفراد في أسلوب الحياة هذا ، وكانوا على اتفاق حول ما هو خير وما هو شر ، وعندما كان الكاهن يلقي مواعظه على الجماهير يوم الأحد كان يسمعه كل أبناء الدائرة الحاضرين حينذاك ، وكان يتحدث بلغة يفهمها الجميع ابتداء من صاحب الاقطاعية حتى الشحاذ . صحيح أن المالك الاقطاعي الكبير كانت له أساليب تفكير ومعايير تختلف عن أساليب ومعايير مجموعة المزارعين ، ولكنه كان يشارك الفلاحين في المشاعر الانفعالية الأساسية لمجرد أنه كان يتحدث اللهجة المحلية معهم .

## التوازن المتبادل بين الاكتفاء الذاتي الديموجرافي والاقتصادي ، والتجانس الحضاري ، والتنوع الاجتماعي الشديد .

لنبداً بالقول بأن الجماعة الريفية كانت تضم رجالاً ونساء وصغاراً ومسنين وكانت بعض الوظائف الاجتماعية في المجتمع الريفي التقليدي تسند للصغار وبعضها للراشدين والبعض الآخر لكبار السن . وكان هناك تمييز قاطع بين وظائف الجنسين ، فقد كان للشباب المهام الاجتماعية مثل تنظيم الاحتفالات . وكان الراشدون يقومون بالوظائف الانتاجية التي تتطلب جهداً جسمانياً ، وكبار السن يقومون بنقل التراث الثقافي ومراعاة اتباع التقاليد وقواعد السلوك (١) ، وكانت القرية تضم أيضاً مجموعات وفئات اجتماعية مختلفة . فكانت مجموعة المزارعين تشكل الأغلبية ، ولكنهم كانوا يتألفون من مجموعات شديدة التباين . فكان هناك أصحاب الأرض الفقراء الذين لم يكن ما يملكونه يكفي للبقاء على حياتهم ، ولهذا كان عليهم أن يعملوا عملاً حرفياً آخر إلى جوار الزراعة ، أو يهاجروا في الشتاء . ثم كان هناك المزارعون ذوو الملكيات المتوسطة والكبيرة والكبيرة جداً . وهناك بالطبع فرق كبير واضح بين مالك هكتار واحد لا يمتلك حتى حصاناً وعربة وصاحب مزرعة من أربعين هكتاراً بها عدة أزواج من الثيران أو الجياد ومجموعة كبيرة من الحيوانات والدواجن المنزلية . وكان يوجد في معظم المناطق تدرج اجتماعي حقيقي بين المزارعين .

وكانت القرية تضم إلى جوار المزارعين فئات اجتماعية أخرى . فكانت هناك فئة الوجهاء الذين كانوا يعيشون على إنتاج الأرض دون أن يزعموها بأنفسهم . وكانت هذه الفئة تضم أصحاب الأرض ، سواء كانوا من النبلاء أو البورجوازية . وكان هناك الكثير من الموثقين والمحامين والوكلاء والقساوسة والمدرسين والأطباء . وكانت الصناعات الريفية تضم أصحاب محال الحدادة والزجاج والمنسوجات والتجار وصغار المنتجين الذين كانوا يصنعون سلعاً مختلفة . وكان هؤلاء الوجهاء يشكلون مجموعة كبيرة نسبياً ذات قوة ونفوذ كبيرين .

وكانت تأتي في المقام الثاني مجموعة كبيرة نوعاً ومتنوعة هي : أصحاب الحرف اليدوية والتجار أو عمال الخدمات الذين كانوا يصنعون أو يصلحون أي شيء يطلب منهم . وكان الحرفيون المهرة مثل الغزلين والتجارين وصنّاع العربات هم الذين بدأت بهم الصناعة الريفية . وأدى ازدياد هذه الفئة الأخيرة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر إلى زيادة في طبقة « الفلاحين والعمال » هذه . وثالثاً كانت هناك الهيئة الإدارية مثل جامعي الضرائب والجنود والكتبة والمستغلين في المزارع الكبيرة وفي الصناعات وفي التجارة .

---

A. Vazargne : Civilisation traditionnelle et genres de vie, Paris, Albin (1)  
Michel 1944.

وأخيرا كان هناك الكثير من الناس الذين لا يملكون وسائل الإنتاج . فكان على الذين لا يستطيعون شيئا سوى العمل اليدوي أن يعملوا خفيا أو مزارعين أجراء أو مساعدين للحريطين ، أو اذا كانوا غير صالحين لهذا العمل أو ذاك يحترفون الشحاذة ، وكانت الشحاذة مصدرا لا بأس به للدخل في القرى القديمة .

وكان هذا التنوع الاجتماعي هو الأساس في تلك الحياة الاجتماعية التي كانت تنصف بالحوية والاشباع . فقد كان الناس يستطيعون اشباع معظم حاجاتهم داخل الجماعة المحلية .

وقد وصفت مارسيل ماجيت القرية بأنها « مجتمع التعارف المتبادل ، حيث كان كل فرد يعرف غيره ، وأعطت هذه العلاقات الشخصية مجتمع القرية شفافية خاصة » . وبفضل هذا التعارف المتبادل أضحت تلك الوحدة بين التنوع والتجانس على القرية تلك الحيوية النادرة التي تصفها المؤلفات التي تتناول الحياة الريفية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والتي تتناقض بشدة مع الملل والبلادة اللتين تهيمنان على الريف في هذا العصر .

### الهجرة الموسمية :

مع أن جمهور المزارعين كان يمثل في كل الأوقات مجرد جزء من الجمهور الذي يعيش في المناطق الريفية فإن نمو السكان في القرن التاسع عشر أدى الى ارتفاع مفاجيء في كل المهن غير الزراعية مثل الصناعة الريفية ، كما أدى الى ارتفاع في الهجرة الموسمية . وقد كتب نائب مدير شرطة ريوم Riom عام ١٩٤٨ يقول : « توجد في مقاطعة سانت جيرفاس صناعتان تقطع غير المهن الضرورية لمواجهة الحاجات اليومية صناعة المفروشات والهجرة الموسمية التي كانت تساعد على سد النقص الناجم عن عدم كفاية الزراعة . فقد كان حوالي ٨٥٠ من البنائين و ٥٠ من الحفارين يفرسون المنطقة في مارس ويعودون في نوفمبر ومعهم ما استطاعوا ادخاره بصعوبة من عملهم في مناطق ليون وأورليان وشامباني » .

أما في جنوب الألب فقد كانت الهجرة الموسمية ذات طابع زراعي في جوهرها ، فكان سكان الجبال يهبطون جنوبا ومعهم قطعاتهم حيث يجنون قطنسا مختلفا . وكان النساء والأطفال يرفعون القطنان في السهول ، في حين يبحث الرجال عن أعمال زراعية . وهكذا كان ساكن الجبل يحصل على الطعام له ولتغذيته ويدخر بعض النقود أيضا . وقد علق أحد مؤلفي القرن التاسع عشر متهمكا على ذلك بقوله : « ان ساكن الجبال البسيط جدا في موطنه . يصاب بالثمن في الطعام والشراب حين يصبح الطعام جزءا من رقبته في الشتاء » .

وسواء كانت الهجرة صناعية ومقصورة على الرجال أو لرحلية وتشمل الأسرة ، فإن الزراعة في القرية كانت تنخفض الى مجرد إقامة أود القائمين بها ، اذ انها كانت تنترك للنساء والأطفال وكبار السن . على حين كان الرجال يرحلون ليكسبوا عيشهم في مكان آخر . وكان من مصلحة الرجال أن يذهبوا وحدهم للعمل بعيدا ، اذ كان هذا يمكنهم من الاستفادة الى اقصى حد من رأس مالهم الضئيل في القرية . فكان المنزل في القرية يابى الأسرة ، وكانت المزرعة الصغيرة تزودهم بالطعام . ولو كان الرجال قد حاولوا بيع ممتلكاتهم المتواضعة في القرية لما استطاعوا شراء شيء مماثل لها ، تعيش عليه أسرهم في المدينة .

وكانت للهجرة الموسمية ما يبررها من الناحية الاقتصادية كما اثبت التحليل الاجتماعي ، ولكن كانت لها أيضا مساوئها الخطيرة . فهؤلاء المزارعون كانوا يملكون شيئا في قراهم ، ويشغلون مراكز محددة بوضوح ، في حين كانوا يصبحون في المدينة التي لا يملكون فيها شيئا بالإضافة الى افتقارهم للخبرة والمهارة بروبليتايرين يستاجرون في مواقع العمل أو في النقل ، ولم تكن حياتهم سارة ، فضلا عن هذا فقد كان النساء يتركن وحدهن لرعاية المزرعة والأطفال .

وعلى هذا لم يكن أمام المهاجر الموسمي الا اختيار واحد صعب ، ولكنه منطقي ، وقد ظلت كثير من الجماعات الجبلية على اتصال وثيق بالعالم الخارجي من طريق الهجرة الموسمية ، وقد حطمت الهجرة التقليدية الموانع الجغرافية ومزلة الجبال ، وقد أبرز « ب . رامبو » حقيقة أن الحياة في الجماعات الجبلية هذه قد عدلت تعديللا جوهريا لدرجة أن كل سكان الجبال شعروا بالحاجة الى « الخروج الى العالم » .

وأوصف السابق ليس بالطبع سوى تصوير تخطيطي عام لهذه المجتمعات ، ولكن الصورة كانت تختلف اختلافا كبيرا من منطقة لأخرى . الا أن هذا الوصف يساعد على فهم العوامل التي أدت الى انهيار التنظيم القديم للأشياء . فبفصل التصنيع الحضري أدخل المجتمع عوامل التفكير الاجتماعي الى الريف ، محطبا بذلك أسس الحضارة التقليدية ، وسوف يستغل هذا المجتمع لصالحه التفكير الذي من شأنه أن يجعل الجماعات المحلية تفقد استقلالها الذاتي .

### الهجرة الجماعية ، والتغيرات في القرنين التاسع عشر والعشرين :

يمكن للاكتفاء الذاتي الديموجرافي أن يستمر مادامت الهجرة تؤثر على الزيادة السكانية فقط ، أي زيادة المواليد على الوفيات . الا أن الهجرة الجماعية يمتد تأثيرها الى ما هو أبعد من الزيادة السكانية ، ويؤدي ذلك الى التسلط الديموجرافي ( أي غلبة فئة من السكان على الفئات الأخرى ) . ومن ناحية أخرى نجد أن الاكتفاء

الذاتي الاقتصادي فيها لا يعود قائما ، نظرا لأن أسواق المدينة تستمر في النمو ، مما يتطلب أن تتجه الزراعة باستمرار إلى الانتاج التجارى لكى تفى باحتياجات الأسواق .

ومع هذا فقد حدثت فى مناطق كثيرة هجرة جماعية دون أن يؤدي ذلك إلى فقدان الاكتفاء الذاتي التقليدى ، فقد استمر الباقون فى المنطقة فى زراعة أراضهم من أجل الحصول على الطعام . ولكن الهجرة الجماعية فى معظم الحالات لم تؤثر على كل الفئات الاجتماعية بالتساوى ، مما أدى إلى حالة من عدم التوازن وتغيير النموذج الذى عرضناه .

والواقع أن الهجرة الجماعية الجزئية للسكان ليست دائما عاملا من عوامل عدم التوازن ، وذلك إذا أثرت على كل الفئات الاجتماعية دون تمييز . فالنموذج الاجتماعى قد يستمر فى أدائه لوظائفه على نطاق أضيق إذا ظلت أسسه الاقتصادية مسئلة نسبيًا ، وظلت الأدوار الاجتماعية الرئيسية فيه تجد من يشغلها . إلا أنه فى معظم الحالات كان الجزء الأعظم من الذين تركوا القرية ينتسب إلى تلك الفئات الاجتماعية التى لا تستطيع الجماعات بدونها أن تؤدي وظيفتها حسب النمط التقليدى .

وتثبتت كل الإحصائيات المتوفرة والبحوث المحلية أن الشباب هم الذين يهاجرون بأعداد كبيرة وفى كل الفترات . وتبين الأبحاث الحديثة التى أجريت عن السكان الزراعيين الفرنسيين أن نصف العمال الزراعيين الشباب ، الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ سنة و ٣٠ سنة ، قد تركوا الأرض بين عام ١٩٥٤ وعام ١٩٦٢ .

والنتيجة الطبيعية لذلك هى عملية استمرار تقسيم السن تؤدي إلى نتائج ديوجرافية معروفة جيدا ، وخاصة تناقص معدل المواليد . ومن الواضح أنه من الصعب فى مجتمع ذى نسبة مثوية عالية من كبار السن تحقيق حياة اجتماعية متوازنة وعرضية .

وهناك ظاهرة أخرى تنجم عن ذلك ، هى اختلال التوازن بين أعداد الجنسين . فالرجال يهاجرون أما هجرة موسمية أو دائمة ، أما النساء فلهن لا يتركن القرية ، لأنهن لا يستطعن الحصول على عمل ، ولهذا يظل النساء يشكلن جزءا متكاملًا فى الحياة الاجتماعية والأسرية التقليدية فى القرية .

ولكن حين تشتد الهجرة الجماعية من الريف فإن النساء يصبحن أكثر اعتمادا للخروج من القرية ، وفى هذه المرحلة يفضل الرجال الاشتغال فى قريتهم أو فى مزارعهم ، فى حين تنجذب النساء نحو الأعمال الحضرية من الدرجة الثالثة . وقد بين أحد البحوث التى أجرتها هيئة INED أن ٥٦% من المهاجرين إلى باريس كن من النساء .

وينجم عن هذه الاتجاهات درجات من العمر غير متناسبة تفهم رجالا أكثر من النساء وكبارا أكثر من الصغار . وفى الحالات المتطرفة نجد قرى صغيرة بلا نساء فى سن الشباب ، ومزارع يديرها أفراد من كبار السن أو غير المتزوجين . وتتضح سيادة نسبة الذكور بوجه خاص فى المناطق الجبلية فى فرنسا ، إذ تصل النسبة إلى ١٢٤ رجلا لكل ١٠٠ امرأة فيما بين سن ٢٥ و ٣٤ . وتؤدى زيادة نسبة كبار السن ونقص النساء ، إذا نظرنا إليها من ناحية العلاقات الاجتماعية ، إلى مشكلات عظيمة ، فالحياة الاجتماعية تعتمد على الشباب وعلى النساء ، وإذا كان الشباب يجد صعوبة فى الحصول على زوجة فإن الحياة الاجتماعية تصبح غير ممكنة .

ولا تترك كل الفئات الاجتماعية القرية بأعداد متساوية أو فى وقت واحد . ويمكن رسم نموذج تقاضى للهجرة الجماعية حسب الفئات الاجتماعية ، ولكن هذا النموذج سيكون نظريا تماما ، لأنه يختلف من منطقة لأخرى تبعا للتاريخ الاجتماعى . والبحوث المحلية الكثيرة التى درستناها تنقسم فى العادة بالفحوش فى هذه النقطة .

و تكون كبار الوجاه عادة هم أول من يترك القرية . فقد كانوا يعيشون فى القرية ولم المدينة فى آن واحد ، وكانوا عادة يعتمدون فقط على دخلهم من الأرض ، ولكنهم كانوا يبدؤون فى تخصيص جزء أكبر من وقتهم لأعمالهم غير الزراعية ، وكان صاحب المصنع يركز اهتمامه فى مصنعه وترك ضيمته ليديرها مزارع أو وكيل أعمال . وكان الموثق والمحامى يخصصان وقتا أكثر للأعمال الصناعية والتجارية ، وكانا يضيفان إليها مجالات المقارات والشؤون المصرفية حيث يقومان بتقديم المشورة لعملائهما فيما يختص بمسائل الاستثمار . وكان الأطفال يعدون لأعمال الادارة أو السياسة أو الصناعة أو التجارة . وكان الجميع يميلون إلى اتفاق وقت أكبر فى المدينة ، ولا يسودون للقرية الا فى اجازات الصيف .

وهكذا فقدوا سيطرتهم السياسية على القرية ، وانتقلت تلك السيطرة إلى فئة جديدة من الوجاه . وكان المزارعون الذين كوفوا رؤوس أموال يهجرون فلاحه الأرض ليحيوا حياة البورجوازية ، ويحولون مزارعهم بالتدريج إلى عزب صغيرة . وكان البورجوازيون الصغار فى المدينة يسعون لملك قطع كبيرة أو صغيرة من الأرض لكي يتشبها بالوجاه السابقين . إلا أن هؤلاء الوجاه الجدد كانوا بلورهم يتجهون للندن لتلك الأسباب التى هجر من أجلها الوجاه القدامى القرية .

وكان الرجال غير المهرة الذين لا تربطهم بالقرية منطلقات ، وخاصة العمال الزراعيون الموسميون ، يتركون القرية أيضا فى الوقت الذى كان يتركها فيه كبار الوجاه . ونتيجة للنمو السكانى والتحولت الحديثة فى الزراعة كان من الصعب العثور على عمل فى المزارع ، فى حين كان النمو الصناعى يتيح الفرص للعمل فى المناطق الحضرية ، وكان الحرفيون أيضا يتركون القرية نظرا لمنافسة الإنتاج الصناعى

الرخص لمحتاجتهم ، فكان الغزاليون مثلاً يميلون إلى الانتقال إلى المصانع في المدينة ، حيث كانت فرص الكسب أمامهم فيها أفضل منها في القرى . وكان العمال الزراعيون والحرفيون يشكلون معا « الجيش البروليتارى » الذى ساعد الصناعة على التوسع في النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وكان صفار الملاك من المزارعين الذين لم تكن مزارعهم تساعدهم على ادخال التحسينات الحديثة لصرفها عاجزين عن التكيف مع الاقتصاد الزراعى للتغير ، ولهذا فانهم لحقوا بالعمال الزراعيين فيما بعد .

وقد درس « ف . بنشمل Ph. Pinahetmel » ثلاثة اقاليم في بيكاردي Picardy ، ووجد انه باستثناء المدن التجارية السبع الصغيرة التى تقع في المنطقة فإن السكان الريفيين انخفض عددهم إلى النصف خلال قرن من الزمان بين ١٨٣٦ و ١٩٣٦ . الا أن هذا الانخفاض صاحبه ثبات نسبي في عدد المزارعين في الأقاليم الثلاثة : ١٨٣٦ مزارعا عام ١٨٣٦ ، و ١٨٣٢ عام ١٨٧٢ ، و ١٤٩٣ عام ١٩١١ ، و ١٢٢١ عام ١٩٣٦ .

وقد اختفت فئة مهنية مهمة كانت موجودة في القرن التاسع عشر اختفاء تاما الآن ، وهى فئة « أصحاب المنازل » الذين كانوا في عام ١٨٣٦ يشكلون ثلثي العدد الكلى للمزارعين . وكان عددهم في بعض القرى يزيد على عدد المزارعين العاديين . وكان « أصحاب المنازل » مزارعين صفارا يمتلكون منزلا وحديقة ومزرعة دواجن وربما بقرة وقطعة صغيرة من الأرض لا أكثر . وكان ما يمتلكونه لا يمثل مزرعة تكفى للعاشة . وكانوا يلجأون من أجل المعيشة إلى العمل لدى المزارعين الكبار الذين كانوا يطوئهم بعض المساعدة ، وخاصة اقراضهم محراثا وجيادا لحث الحقل . وكانت هناك علاقات وثيقة ومعقدة بين كبار المزارعين وأصحاب المنازل ، وكثيرا ما كان أصحاب المنازل يشتغلون ببعض الحرف اليدوية مثل الغزل أو صناعة الكراسى . وهكذا كان صاحب المنزل يكسب رزقه من أملاكه المحدودة وعمله بالأجر وحرفته اليدوية .

وكانت أعداد العمال الزراعيين المأجورين ٤٢٧٤ عام ١٨٣٦ ، و ٤٨٨٤ عام ١٨٧٢ ، و ٤٤١٧ عام ١٩١١ ، و ١١٣١ عام ١٩٣٦ . وهكذا نجد أن عدد السكان الزراعيين الذين كانوا يتكونون من المزارعين المستقلين والأجراء قد ظل حتى عام ١٩١١ ثابتا تقريبا ، بل زاد زيادة طفيفة ثم حدث انخفاض شديد في عدد العمال الزراعيين زاد عن خمسين في المئة ، في حين كان الانخفاض في عدد المزارعين طفيفا .

وانخفض عدد الحرفيين من ٦٤٢٧ عام ١٨٣٦ إلى ٣٤٦٠ عام ١٨٧٢ ، و ٢٥٦٩ عام ١٩١١ ، و ١١٤٣ عام ١٩٣٦ ، أى بنسبة ٦ : ١ . وهكذا نجد أن الهجرة الجماعية الريفية كانت غير زراعية في جوهرها . وكان المهاجرون في معظمهم نساكين وغزاليين

وصناع ملابس ومشتغلين بأصلاح الأتوال وصناع حبال وصباغين الخ . وفي عام ١٨٧٢ بدأ عدد الحرفيين الذين يعملون في منازلهم يتناقص ، وبدأت الورش الصناعية الصغيرة في الظهور . وبدأت هذه الورش تندمج بعضها مع البعض الآخر ، وأصبح عددها أقل عام ١٩١١ . وكانت هناك فترة قصيرة ازدهرت فيها صناعة الأخشاب والكراسي بين ١٨٧٢ و ١٩١١ . وفي عام ١٩١١ أقيمت مصانع للسكر والخمور ومصانع للسجاد . وفي عام ١٩٣٦ اختفت الورش الصغيرة تماما . وهكذا شهد هذا القرن تغيرا اجتماعيا عميقا . وحل محل التكامل بين الانتاج الزراعي والنتاج النسيج زراعة تعتمد على الصناعة الزراعية والتحويلية .

وظل عدد العمال الحرفيين الذين يقدمون الخدمات والتجار والمهن الحرة كما هو في كثرته ، مع انتقال هذه الفئات من القرى الى المراكز الاقليمية . وقبل عسدد الحرفيين بنسبة طفيفة ، وبدأوا يقومون بأعمال مختلفة ، فحل محل الحداد ومنجد الأثاث ميكانيكي الآلات الزراعية . وازداد عدد التجار من واحد في كل ٦٠ - ٧٠ مواطنا الى واحد في كل ٥٠ ، ولكن عددهم الكلي قل بصفة عامة . وزاد عدد المهن الحسرة وسنخمي الدولة ( الموثقين والأطباء والجنود وجامعي الضرائب والمدرسين الخ ) من ١ في كل ١٠٠ مواطن سنة ١٨٣٦ الى ١ في كل ٣٤ - ٣٩ عام ١٩٣٦ .

ويميز « بنسمل » بين « القرى القوية » و « القرى الضعيفة » . فالأولى كانت ترى عمال القرن الثامن عشر ، وهم من المزارعين المصنعين الذين تحملوا الأزمات أو قاموا بخطوات ايجابية فزادوا من ممتلكاتهم عن طريق شراء الأرض ومنع أصحاب المنازل أو العمال المأجورين من أن يصبحوا مزارعين . أما القرى الضعيفة فكان بها أصحاب منازل أو عمال مأجورون فقط ، غير قادرين على التوسع . وقد ترك هؤلاء أرضهم ليعملوا لدى كبار المزارعين في القرى القوية .

وبعبارة أخرى استطاع البناء الزراعي مقاومة التغير في بعض القرى ، لأن أصحاب الأراضي الكبيرة كانوا قادرين على ادخال التحسينات الحديثة ، في حين كان على الفئات الاجتماعية الأخرى ، مثل أصحاب المنازل ، أن تهجر القرية . والذي حدث في القرى التي كان يشكل فيها المزارعون الفقراء والحرفيون أغلبية السكان أن البناء الاجتماعي أخذ يترنح حتى تهوى في النهاية ، وقام المزارعون الكبار من القرى المجاورة بشراء قطع الأرض الصغيرة .

وهكذا فإن المجتمع المحلي ، الذي يتكون أساسا من المشتغلين بالزراعة ، كان معرضا للتأثير المباشر للصناعة .



## الوظف الراهن :

إذا قارنا قرية عام ١٨٢٠ بقرية عام ١٩٦٠ فأتنا نجد أنه مع مغادرة كل هذه الفئات الاجتماعية للقرية لم يبق سوى المزارعين الكبار والمتوسطين . ولم يعد بالقرية أى تنوع اجتماعى ، ولما كان هذا التنوع شرطاً أولياً للحياة الاجتماعية التقليدية فإن الهجرة الجماعية الريفية أدت إلى اختفاء هذه النمط من الحياة .

• وظاهرة اقتصار قاطنى الريف على المشتغلين بالزراعة تتزايد باستمرار ومادامت الفئات الاجتماعية الأخرى قد انتقلت إلى المناطق الحضرية . كما أن مؤسسات القرية مثل المدارس والكنائس والتعاونيات تميل إلى الانتقال إلى المدن التجارية . وأصبح كلا الاتجاهين أكثر وضوحاً ، وأحدثاً تغيراً فى نطاق المجتمع الريفى . فقديمًا كانت القرية تعتبر إطاراً سليماً لتحليل الشكل التقليدى للمجتمع ، فى حين أصبح إطار مثل هذا البحث الآن هو مجموعة القرى . أى أن مقياساً طوله حوالى كيلو متر واحد أصبح يساوى الآن عشرة كيلومترات .

ولم يؤد رحيل مختلف الفئات الاجتماعية فى أوقات مختلفة إلى أحداث الاضطراب فى الشكل الاجتماعى العام فحسب ، ولكنه أدى أيضاً إلى أحداث خلل فى « توازن القوى » . فقد كان الوجهاء يتمتعون بالسلطة السياسية والاجتماعية فى المجتمع ككل . وكانوا هم الذين يتولون الاتصال بالعالم الخارجى . وحين تركوا القرية أصبحت هذه الوظائف خالية . وقد كان من الطبيعى أن يميل بورجوازيو المدينة الصغيرة أو المزارعون الأغنياء فى فرنسا ، الذين اشتروا الاقطاعات أو قسموها فيما بينهم ، إلى أن يتركوا هذه الوظائف ويصبحوا وجهاء ، وحين ذهبوا هم أيضاً فانهم تركوها للمدرسين والأطباء . وقد كان كل جيل من هؤلاء الوجهاء يقدم نفوذه بطريقته الخاصة ، فيعمل على تبطؤ حركة الهجرة الجماعية أو الاسراع بها حسبما تملبه عليه مصالحه . وقد أدى رحيل الوجهاء ، سواء كانوا من النبلاء أو البورجوازية ، إلى انهيار حجر الأساس فى التدرج الاجتماعى للقرية . وانتقل ثقل النفوذ الآن من الأقلية ذات النفوذ إلى أكبر المجموعات عدداً : المزارعين . وهكذا اختفى مبدأ التنوع والتدرج فى المجتمع ، وأصبح الجميع متساوين اجتماعياً ، ولم تعد هناك فرصة للترقى الاجتماعى ، وأصبح على كل من يرغب فى تغيير مركزه أو فى التقدم فى الحياة من الشباب أن يترك القرية .

ومع تناقص السكان يصبح من الصعب الإبقاء على المؤسسات الجماعية مثل مجلس القرية أو المدرسة أو الكنيسة ، وخاصة حين يكون السكان زراعيين تماماً . ففى هذه الحالة تصبح وظيفة مجلس القرية هى تناول المشكلات الزراعية فقط ، وظهرت بعض المنظمات المهنية ، مثل روابط الفلاحين والمنتجين والجمعيات التعاونية ، وأصبح أعضاء مجلس القرية هم أنفسهم أعضاء هذه المنظمات ، وأصبح هناك ازدواج . وأصبح مجلس القرية بالفراغ ، ولم يعد هناك مرشحون يتقدمون لانتخابات المجلس ، وأصبحت

ميزانيته ضئيلة لدرجة لا تسمح باتخاذ أى عمل ، ويصدق هذا أيضا على الكنيسة واتحاد الفلاحين . ان الجماعة التى تضم مئتين من الناس لا يمكن أن تضطلع بأعمال المؤسسات التقليدية ، فما بالنا بمؤسسات جديدة مثل المراكز الاجتماعية أو الترفيهية .

ومن المفارقات أن التدهور فى السكان وفى الحياة الاجتماعية صاحبهما كثرة وتعدد فى المؤسسات التى لم تمت تلعب دورا فى الحياة الاجتماعية ، فالهجرة الجماعية « تغلب نفسها » بتطعيم الأبنية والميكانيزمات التى تجعل حياة القرية ذات قيمة بالنسبة للقرويين . وقد أجرى الكثير من البحوث فى مختلف البلدان عن وجود الكنائس والمدارس وعن عملاء مختلف الحرف والمهن ، إلا أن هذه البحوث لم تصل الى استنتاجات أو حتى الى معايير يمكن الرجوع إليها . فمثل هذه المعايير لابد أن تختلف باختلاف الظروف الديموجرافية . ولكن قد يكون من المفيد أن نورد بعض الأمثلة .

لقد سارت فى خط متواز مع للهجرة الجماعية ظاهرة تربط الزراعة والانتاج الصناعى الحضرى ، وقد تكون على حق حين نتساءل هل التقدم الفنى فى الزراعة قد جعل من نفسه بديلا لأصول الحياة الجماعية التقليدية ؟ ان التفاعل الاجتماعى القديم الذى كان يقوم على التنوع سوف يحدث ، بعد اختفاء الكثير من الفئات الاجتماعية ، بين تلك الفئة التى بقيت فى الجماعة ، أى فئة المزارعين . وسوف تظهر قيم جديدة : فسيكون المزارع الكبير هو الشخصية المركزية ، وسوف يحصل نتيجة ادخاله للأساليب الفنية الزراعية الحديثة على نفوذ متزايد ، ويحتل مركز الوجهاء السابقين .

هذا التشكيل الجديد لحياة القرية معروف جيدا للمتخصصين فى العناية الزراعية ، الذين يعرفون أنهم يجب عند محاولتهم الترويج لسلعة فنية جديدة أن يقدموا بها أولا مزارعا كبيرا . وحين يحدث ذلك فإن الآخرين سوف يحذون حذوه ان عاجلا أو آجلا .

ومع التقدم التكنيكي تحولت الزراعة فى النهاية الى الانتاج بفرض التسويق وحل الاعتماد المتزايد على الأسواق الخارجية - المدن - محل الاكتفاء الذاتى التقليدى . وأصبحت الزراعة ترتبط ارتباطا وثيقا بالصناعة ، التى تزودها بالأسمدة والآلات والمهندسين الزراعيين ، الخ . وهكذا نجد أن الأنظمة الاجتماعية لهذه الجماعات المحلية لم تمت ذات اكتفاء ذاتى ، وأنها سوف تصبح بالتدريج جزءا متكاملًا فى المجتمع السكلى .

وقد يتعرض البعض على أن ما قلناه حتى الآن مبالغ فيه الى حد ما . فمازلنا نجد فى كثير من أجزاء أوروبا بقايا لأساليب الحياة والأنظمة الاجتماعية القديمة ، بما فى ذلك العلاقة بين مالك الأرض والمستأجر ، وغيرها من العلاقات التقليدية ، ولكننا

سرعان ما نكتشف أن هذه البقايا لا تقسم على حقائق اجتماعية ، ولكن على رفض للتشيز . وهذا الرقص يحدث أساسا في المناطق المتخلفة التي لم تنفجر فيها الزراعة بدرجة تكفي لظهور ابنية اجتماعية جديدة . فحين يكون صاحب الأرض الكبير من سلالة الرجيه القديم ( ليس مزارعا غنيا يدخل الميكنة ) ويستمر في زراعة أرضه ، مستخدما في ذلك مجموعة كبيرة من المأجورين والفلاحين ، بدلا من العمل على تدعيمها وتقويتها ، فإننا نجد أن العلاقات الاجتماعية التقليدية تبقى قائمة ، بل تدخل معركة المؤخرة مع النظام الاجتماعي الكلي الجديد . وينتج عن هذا تلك « الحلقة المفرغة » التي يعرفها جيدا خبراء المناطق المتخلفة ، وأهم عناصر هذه الحلقة الابنية الاجتماعية التقليدية ، ورفض التقدم التكنيكي ، والعداء تجاه العالم الخارجي ، والفقر النسبي للجماعة ، وسوء النية تجاه أى شيء يهدد بناء الأشياء التي أصبحت « ملاذا » الخ .

ويتصف العالم الريفي في البلاد المتطورة في نوما الآن بوجود النمطين من الجماعات الريفيه معا ، فمن جهة نجد تلك الجماعات التي استطاعت بعد ظهور النظام الاجتماعي القائم على التقدم التكنيكي أن تتكيف مع المتطلبات الاقتصادية للمجتمع الكلي ، ومن جهة أخرى نجد تلك الجماعات التي بقيت على هامش التطور الاجتماعي ، وتتبع الى حد ما أساليب الحياة والتفكير الموروثة من الحياة التقليدية .

وكل نمط بلا شك يسود في بعض المناطق بأسرها ، الا أن الملاحظ يواجه عادة بحقيقة أكثر تمقدا ، وهي وجود النمطين جنبا الى جنب في مجموعة من القرى ، أو في القرية الواحدة ، حيث توجد مجموعتان اجتماعيتان متعارضتان . فمثلا نجد أن مجموعة من الزراعيين قد كيفت نظام انتاجها للسوق الخارجي ، في حين يجد أن أعضاء مجموعة أخرى ، وجندت عملا في مدينة مجاورة ، مستمرة في زراعة ممتلكاتها الصغيرة ، أو تعمل باليومية في وقت فراغها .

وعلى غير المتوقع نجد عادة أن المجموعة الثانية هي الأكثر استعدادا للمحافظة على الأسلوب القديم للحياة ، اذ يبدو أنها راغبة في ترك المزارعين المتفرغين يتولون شؤون الحياة في القرية ، ويحلون فعلا محل الوجهاء السابقين . وفي هذه الحالة يحاول المزارعون المتفرغون استخدام مؤسسات القرية لصالحهم ، أو اذا شعروا بتهديد للزراعة يتدخلون للحفاظ على الأساليب التقليدية . وتلك مرحلة انتقالية ، فالجماعات الصغيرة لا تعيش دائما في وفاق . وتكون النتيجة احساسا بالاحباط ، وتطلعا للعودة الى الأسلوب التقليدي للحياة .

ولقد أدت النماذج الاجتماعية الانتقالية التي حلت محل النماذج التقليدية دور الوسيط في التحول الزراعي الاقتصادي . ويمكننا الآن تصور الأنماط التي يمكن أن يأتي بها المستقبل .

## نموذج المجتمع المحلي في المستقبل

ما زالت صورة الريف بوصفه معمل الانتاج الزراعي قائمة . فاذا ما اتسع نطاق مفهوم « الريف » ليشمل المدن الريفية الصغيرة فاننا نجد أن السنوات الخمس عشرة الماضية قد شهدت تضاملا ، نسبيا ومطلقا ، للتطاع الزراعي في مجموع السكان العاملين في المناطق الريفية ، وبذلك نمود - بشكل آخر - الى الموقف عند بداية القرن التاسع عشر : تضائل مستمر في عدد العمال الزراعيين في الريف ، وتراجع مستمر في كون الريف معملا للانتاج الزراعي .

ان تحليلنا ينصب الآن على وحدة مختلفة . فقد كان من الممكن تسمية مجتمع الفلاحين في القرن التاسع عشر « مجتمع القرية » أو « مجتمع المزارعين » ، وعلى العكس من ذلك لا يمكن تسمية المجتمعات الريفية اليوم أو غدا بالقرى ، ولكن مناطق ريفية تتركز حول مدينة صغيرة ولكنها ريفية أيضا . ويعود تنوع قرية القرن التاسع عشر مرة أخرى للظهور الآن ، ولكن على صورة أخرى : فهناك عدد متضائل من الزراعيين ، ولكن يوجد عدد كبير نسبيا من السكان الذين يعملون في قطاع الخدمات ، وجمهور ثانوي يشتغل في صناعات محلية صغرى ، وجمهور مقيم غير منتج .

والنموذج المثالي للمجتمع الريفي في المستقبل يمكن أن يكون مدينة صغيرة ذات سكان يصل عددهم الى ٥٠٠٠ ، ولا يزيد على ١٠,٠٠٠ ، تحيط بهم مزارع وعرب زراعية ، بالإضافة الى جمهور من السكان منتشر بطريقة مبشرة حول المنطقة .

هذا البناء على الرغم من أنه على مستوى مختلف يمكن تفسيره بقرية القرن التاسع عشر التي كانت تحوى عددا من السكان يصل الى حوالى ١٠٠٠ يتكسزون حول الكنيسة ومجلس القرية . وسوف يكون مركز المدينة الريفية الحديثة أكبر بكثير ، نظرا للتنوع المتزايد للمدينة الصناعية . على أنه سيكون هناك فرق جوهري واحد ، وهو أنه في النموذج الجديد سوف يكون المجتمع الكلى في متناول أى عضو في الجماعة المحلية من طريق وسائل الاتصال الجماعى : التليفزيون ، والصحافة ، والسينما . وسوف تصل اليهم في منازلهم ، على عكس القرى القديمة التي كانت الوسائط الوحيدة بها هي « الوجاه » .

وهكذا نجد أن البناء الجديد سوف يكون حضريا وليس ريفيا . وسوف يكون مشابها لضاحية المدينة فيما عدا قلة الكثافة السكانية .

وبهذا فإن العامل التنظيمى للجماعة الريفية المحلية في المستقبل لن يكون التقاليد أو المصادر الطبيعية ، ولكن قربه وعلاقاته بالمجتمع الحضري الحاكم . وينتظر التركيز الريفي ميل المناطق المتحضرة للتوسع الخارجى . فالمدن تتضائل فيها باستمرار

خاصية « المراكز ذات الاسوار التي يعيش فيها الناس » • ولكنها تفكون على الرغم من كثافة التحضر من سكان لا تربطهم شبكة قوية من العلاقات • وقد ينطبق وصف المجتمع الريفي أيضا على المجتمع الحضري • وإذا استخدمننا هذا المنظور فإننا لا نجد فرقا بين مجتمع ريفي حقيقي يبعد عن أى مدينة وبين مجتمع حضري هامشى ذى نسبة مئوية قليلة جدا من المزارعين •

وإذا نظرنا عن قرب لهذا المجتمع الريفي أو الحضري الهامشى وجدنا أن نسبة السكان الزراعيين تتراوح بين ٥٠٪ من السكان العاملين فى المناطق التى مازالت « معامل زراعية » و ٢٪ من السكان العاملين فى بعض المجتمعات الحضرية الهامشية • أما باقى السكان فإنهم يعيشون فى المجتمع ويعملون فى المدن أو الضواحي أو يحصلون على معاش أو لديهم وسائل مستقلة لكسب العيش •

أما فى المجتمع الريفي الخالص فإن السكان غير الزراعيين العاملين قد يعيشون فى المجتمع • ولكنهم ينتقلون بوسائل المواصلات الى مسافات طويلة أو قصيرة • وفى المناطق التى بلغت درجة عالية من التصنيع ، مثل شمال أو وسط فرنسا وهولندا وبلجيكا وأجزاء من ألمانيا ، فإن السكنى فى الريف أو الحضر لا تهم كثيرا المشتغلين فى الصناعة والإدارة • ومع هذا فإن السكان الزراعيين العاملين يكون عددهم كبيرا فى المناطق الأقل ازدهارا بالسكان ، فهذه المناطق هى « الريف الحقيقى » • أما الجمهور غير الثابت فقد يزيد بفعل السياحة الموسمية والهجرة الترفيهية فى الاجازات ، وهذا هو الوجه المقابل للهجرات الموسمية للعمال الزراعيين فى الفترات السابقة •

وظاهرة الإقامة الثانوية تنمو فى المناطق الساحلية وأماكن الاصطياف وكذلك فى المناطق الريفية الخالصة ، ويبدو أن أهمية الهجرة بعد التقاعد عن العمل تتزايد فى مجتمعنا ، نظرا لأن التزايد فى فترة الحياة المتوقعة وفى فترة التقاعد يؤدى بأعداد متزايدة من الناس الى المعيشة اعتمادا على دخولهم ، وكستهلكين فقط • فهناك الكثير من الناس الذين يفضلون المعيشة فى الريف على المدن •

ويتزايد عدد هؤلاء السكان المؤقتين أو الدائمين المستهلكين غير المنتجين باستمرار فى الريف ، فلديهم حاجات لابد أن تسمع ، ونقدو يمكن أن تنفق • ويؤدى ذلك الى انشاء خدمات تشتمل على البيع والخدمات الترفيهية والثقافية فى مدن صغيرة تتكون من عدد كبير من السكان المشتغلين بالخدمات •

وأخيرا يمكن أن تساعد الاتصالات اللاسلكية بعض الخدمات على الانتقال من المدينة الى الريف • فالبانك الكبير مثلا يمكن أن يفتح فروعا فى أى منطقة اذا توفرت وسيلة سريعة وسهلة للاتصال •

وصوف يتكون سكان المناطق الجبلية أساسا من الناس القادمين لتعضية أجازة الصيف أو محبي رياضة الشتاء . وصوف تمثل هذه المناطق حالة هامشية ، أعنى منطقة سياحية بها أماكن للخدمات يديرها عدد قليل من المرشدين وأصحاب الفنادق لحمة السياح الذين يأتون للأنزلاق على الجليد ، أو أتاحة القرص لأطفالهم للتمتع بالهواء الطلق .

ولقد كانت الزراعة دالة مهنة إعاشة تزود المزارعين بما يحتاجون اليه لغذائهم ، وكان الريف فى القرن الثامن عشر مثالا على صدق ذلك ، فقد كان من بين أسباب قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ أن سكان القرى لم يجدوا ما يأكلونه . وفى هذه الأوقات كانت الحكومات تضع بالقلق بسبب نقص الطعام فى الريف ، أما الآن فان الوضع عكس ذلك ، إذ أن على الحكومات أن تواجه مشكلات زيادة الانتاج الزراعى عما هو مطلوب .

وقد تعود المشكلة القديمة للظهور فى المجتمعات الجديدة ، إذ يكون على القرى الحديثة أن تستجلب الى جوار المنتجات الصناعية الطعام مثل أى جهة حضرية . ومن احتمالات التطور فى المستقبل عودة انتاج الأفراد لطعامهم ، فكل السكان الذين لايرتبطون بأعمال أو لديهم مصادر خارجية للخل قد يخصصون جزءا من وقت فراغهم لزراعة الحدائق أو تربية الدواجن .

وتتزايد المهن اليدوية البسيطة فى كل من المدينة والقرية . فالانتساج المتفنن بالجملة لا يفى بكل الحاجات الشخصية ، ولهذا فان نوعا جديدا من العمل الذى يعتمد عليه بعض الناس فى حياتهم سواء فى مجال الزراعة أو المهن اليدوية سوف يظهر الى الوجود .

## خاتمة :

يتضح لنا ، بعد عرضنا للاتجاهات التنظيمية للمجتمعات الريفية فى البلاد الصناعية ، أن المجتمع الريفي فى المستقبل قد يتجه نحو استعادة السمات الأساسية للقرى القديمة بدرجة أو بأخرى . ونحن نشير الى تلك السمات التى أخذت فى الاختفاء بسبب الاضطرابات التى أحدثها التصنيع والهجرة الجماعية الريفية :

١ - التجانس الثقافى ، الناجم عن المشاركة فى مدينة كلية لامدنية محلية خالصة .

٢ - التنوع الاجتماعى الناجم عن كثرة الخدمات الريفية وفئات السكان المقيمين فى الريف .

٣ - العلاقات الاجتماعية المتعاضدة القائمة على النشاطات الثقافية والرياضية والسياسية والدينية وغيرها .

٤ - الزراعة ، سواء للتجارة أو الاعاشة ، سوف تكون عمل الأقلية .

٥ - تداخل المهن الزراعية وغير الزراعية داخل الأسرة الواحدة ولدى بعض الافراد الذين يزاولون المهن الزراعية وغير الزراعية مما .

٦ - سوف تلعب الهجرة الموسمية دورا مهما كعنصر للاتصال بالعالم الخارجى وللنمو السكانى .

ومع ذلك فان الانتقال من النمط القديم الى الحديث - أى من سكان يبلغ عددهم ٥٠٠ الى سكان يصل عددهم الى ١٠٠٠٠ - لن يجعل العلاقات التعاضدية المتبادلة شيئا ممكنا . وسوف تظهر العلاقات الوظيفية أو البعيدة ( أو الثانوية ) ، كما ستظهر أيضا مجموعات حضرية أولية ذات علاقات شخصية جديدة .

وقد يجد بعض القراء أن تشبيه المجتمع الريفي فى القرن العشرين بالمجتمع الريفي فى القرن الثامن عشر شيء مفرط فى الخيال ، ويمزونه للحنين الى النظام القديم والتطلع الى العودة اليه ، ولكننا ندعوهم الى النظر فى مدى صدق عناصر الملاحظة المتوفرة وتماسك النموذج الذى نقدمه .

والحق أنه ليس هناك عمل أكثر الحاحا فى أواخر هذا القرن العشرين فى البلاد الصناعية من دراسة ميكانيزمات انتقال هذه الأصول التكنولوجية والابقاء عليها .

ويجب خلق وسائل عقلية صالحة لوصف التنوع التقليدي ، وللتصوير عن تنوع المستقبل والتنبؤ به .

فإذا أخفق عالم الاجتماع الريفي في القيام بهذا العمل فسوف يأتي الوقت الذي يختفي فيه السكان المزارعون ، وحينئذ يجد نفسه عاجزاً عن الإجابة على واحد من أهم الأسئلة التي أثارها حضارتنا ، وسوف يكون عليه أن يلجأ إلى الأدب الشعبي أو إلى علم الاجتماع النفسي الذي يعالج العمل الزراعي ، ومعنى ذلك أنه لن يصبح عالم اجتماع .

---

#### الكاتب : هنري مندراس

ولد عام ١٩٢٧ . تلقى علماً في جامعة شيكاغو استاذاً بمعهد الدراسات السياسية ، مدير البحوث في معهد البحوث القومي . يهتم في مهمة خاصة للاقتصاد وجمع البيانات باليونان واليونان . مدير الجامعة السبيولوجية الريفية التابعة للجمعية القومية للبحوث الاجتماعية والمتخصصة في أبحاث نظريات المجتمع ومقابلة الفلاحين . له مؤلفات عديدة في النواحي الاجتماعية والسياسية والسكولوجية .

الترجمة : د. محمد نعيم أحمد

استاذ بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، بقسم الاجتماع





## المقال في كلمات

لقد نعتت الصحافة حقا بأنها السلطة الرابعة ، إذ تأخذ مكانها بما تتمتع به من سلطة واسعة وتأثير بالغ في المجتمع جنباً الى جنب مع السلطات الثلاث الأخرى : التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية . وفي هذا المقال يتناول الكاتب الصحافة ودورها . انه يرى في الصحفي فنانيا ذا طابع خاص ، فنانيا يطمح لتطلعات زمنية وإنسانية . انه فنان عليه أن يتبين اتجاهات جمهوره ، ويسبق فنه المبدع على الواقع لكي يستسيغه هذا الجمهور ويقبل عليه . ويتناول الكاتب كذلك الصحافة كوسيلة اعلامية من ناحيتين : الناحية الاجتماعية ، والناحية الفكرية ، بما في ذلك الاعلام العلمي والفني والثقافي . ولما للاعلام من أهمية قصوى للمجتمعات والمنظمات وجد انه لابد من استخدام اخصائين للإشراف عليه . وما يؤخذ على الصحفي أحيانا انه ، بوصفه عاملاً في مؤسسة متخصصة ذات مصالح خاصة ، يصوغ ما يكتب في عبارات تحابي هذه المصالح ، مما قد يسهم في خلق مظاهر متحلة وفي خلق حياة عامة مزورة . وبذلك فإن تفاسد الاتجاه الصحفي إنما ترجع في الأصل الى تسخير الصحافة في غايات بعيدة عن أهدافها الأصلية . ومن ميزات المراجعة الصحفية للأخبار الأكاديمية تفسير الاتجاهات الجلييلة بمباريات سهلة بسيطة ، ويتم ذلك غالباً على أيدي الفراء غير متخصصين ، لكنهم يعرفون كيف يتحنون عنها . وفي مجال المصاحبة تقدم

المصاحفة الجعج التي تساند أو تعارض فكرة ما أو مشكلة ما ، ولكن هذا الجدل لا يصل الى تجريد المشكلة الأصلية وخاصة أمام جمهور غير مختص . إنها قد تستبدل بالتفكير المنطقي اختيار كلمات ذات شحنة تأثيرية كبيرة . إما في مجال العلاقات العامة فهي المصاحفة إذا أرادت النجاح أن تتجنب الروتين في تقديم اللوادر الإعلامية ، وتلجأ الى الابتكار التواصل .

يختص الاتجاه الصحفي برواية أحداث هذا العالم بوسائل دورية ، الطباعة إحدى مميزات الأساسية ، سواء تعلق الأمر بجريدة يومية أو صحيفة أسبوعية أو نصف شهرية ، أو برنامج إذاعي أو تلفزيوني . إن فعل الرواية محدود ، لاسمى أنه ينقل صورة للعالم محددة بإطار الحدث المروي فحسب ، بل أنه محدد كذلك بدورية المطبوع . فالزمن يصبح إذن بعدا جوهريا يتوقف عليه جانب كبير من رواية الأحداث هذه ، التي تعطي صورة للعالم وتحلونها .

والزمن المميز على هذا النحو ليس هو الزمن للطبيعي للإنسان العادي ، لأنه نظرا لدورية المطبوع يكون هذا الزمن عاملا موضوعيا خاضعا لظروف خارجة عن الظروف النفسية للفعل تتحكم فيه على الرغم من إمكان إدخالها ضمنه .

وليس الزمن بالنسبة للصحفي إلا عارضا تحكمه متطلبات المطبوع وليس له من نسق خاص إلا اقتصاده وانتظار القراء : فالمطبوع يصدر وفقا لدورية معينة . لذا كان عليه ، دون أن يأخذ في الحسبان عدم الاستكمال الاحتمالي لبسته ومعارفه ، أن يقدم قصة تبدو في آخر سطر لها كالأها كل كامل . إن العنصر المكتمل من القصة أو ( الكيف ) الصحفي ، يشبه صورة عالم كامل كما يقدمها عمل فني ، ولهذا السبب يكون الصحفي فنانا من هذه الناحية ، ولكنه فنانون يخضع عمله لمتطلبات زمنية لا تميز الفنان على وجه العموم . وإن ضرورة تقديم قصة كاملة بذاتها تضطر الصحفي الى العمل بفرض الوصول الى خاتمة غير التي كان يمكن أن تكون لو لم يخضع لهذه المتطلبات الزمنية .

طابع آخر للاتجاه الصحفي يأتي من موقف الصحفي تجاه قرائه . ففي الاتجاه الفني يعد الفنان المبدع صورته الخاصة الذاتية للواقع ويعرضها باستخدامه التقنيات الموضوعية لفنه ويعرضها على جمهوره . فهو يخلق إذن النماذج والرؤية التي سوف يحكم على عمله بمقتضاها .

أما الصحفي المقيد بدورية المطبوع لأنه في الواقع يبيع نطاً من وسيلة إعلامية ، فإنه يضطر إلى توقع استجابة جمهوره تبعاً لما يسميه الصحفي « بالاهتمام الإنساني » فعليه أن يعرف مقدماً أن هذا الخبر سوف يثير الجمهور أو يسره أو يشجّع قراءه عند نشره . وهذا يعني أن تيار انتباهه يجب أن يتبع التيار الطبيعي لانتباه جمهوره . يجب أن يتخلى عن قصصه واهتمامه بهذا الحدث أو ذاك بقدر ما تتغير الأحداث ذاتها ، سواء فيما يختص بوجهها الدرامي في نظر الجمهور ، أو على وجه يتسلسل واهتمام الجمهور ، كما يتصوره الصحفي (١) .

والقول المعروف المعاد الذي يؤكد أنه ليس هناك أقدم من جريدة الأسس قول حقيقي إذن ، بحيث لا يمكن اعتباره قولاً معروفاً ومعاداً .

ولهذا السبب لا يكون للمصحافة بالضرورة أو لا يمكن أن يكون لها الحق والصفة اللازمية للفن ، مع أنها لا تعتبر أخرى تجعل المرء يفكر في صنعها للصور .

ومع ذلك فإن للمصحافة ، من وجهة نظر ثالثة ، عدة سمات مشتركة مع العلم والفن ، ذلك أن إحدى مميزات المصحافة الجيدة أنها تؤدي إلى تعديل قيمة العالم الطبيعي تمديلاً مؤقتاً على الأقل ، لأن المصحافة الجيدة تتخذ أطاراً لها عالم الانتراضات اليومية الوترية ، الشيء الذي ينتظره عادة جمهور طبيعي ويكتشف في الرواية المعبرة عنم انظار الحياة اليومية . وهكذا فإن ما يعطي « مادة للإعلام » والوجه الدرامي و « الاهتمام الإنساني » للقصة يبحث سواه عن التأكيد الدرامي أو النفي الدرامي عن طريق أحداث عالم الحياة اليومية .

فعندما يقدم الصحفي على المسرح التكميز الذي تفرغ فيه الأحداث على الحياة اليومية ، فإنه يبرز المتناقضات التي توجد بين الصورة والواقع والخدع والمغالطات التي تتوارى خلف عدة واجهات ، ويقترح تحريك تراكيب الزم لإدارة عالم المظاهر . وتؤدي هذه الأنشطة أحياناً إلى تجديد بعض القيم ، المهمة غالباً ، لأنها مقبولة ولا أحد يفحصها . وفي أحيان أخرى فإن نتيجة هذه الاقشاعات الدائمة قد تكون تنزيلاً للقيم حين تبدو هذه الأخيرة بلا أثر . ولكن في كلتا الحالتين فإن كتابة التقرير الاخباري الجيد

---

(١) وهذا ما يقوله جورج سيمل ، في التصنيف المسوّق والتنظيم ، الجزء الخامس « قائد ومقود » : « يعطي الصحفي مضموناً وتوجيهاً لإراء جمهور صامت . ولكنه يضطر مع ذلك إلى أن يصفى إلى انجاعات هذا الجمهور وينسحقها وإلى مايرغب في الاسفاء اليه وان يسمع تأكيداً أن أراد أن يوجه . ففي حين أن الجمهور وحده يخضع ظاهرياً لإيهاماته فإنه في الواقع وبالقدر نفسه يخضع لإيهامات الجمهور . أن تأثيراً متبادلاً في غابة التعميد ( تظهر لواته التناقضات بالتأكيد في أشكال مختلفة تماماً ) يخفى الآن خلف صورة التفوق غير المتقيد لأحد العناصر والسلبية غير المتقيدة للآخر » من علم اجتماع جورج سيمل ، ترجمة كرت ولف ، ليمبوروك ، فرى برس بويرك ، ١٩٦٤ ص ١٨٥ - ١٨٦ .

تعتبر أكثر من تقرير أخباري ، إنها فعل خلق وإعادة خلق ، على أن آثارها ، مهما اشتهت في وقت ما ، لن تكون على الأرجح سوى مؤقتة ، ذلك أن الصحفي مضطر الى أن يغير دائما مكان بؤرة الاهتمام : أن كشف الأسرار نفسه ، في هذا المجال الخاص أو ذاك ، يصبح عملا رتيبيا ، وتتغير تبعاً لذلك استجابة القراء .

وإن كانت نتيجة هذه الأنشطة يمكن أن تكون ، من وقت لآخر ، فضيحة عامة أو القاء القبض على مجرمين ، أو تعديلا في تصميم سيارة أو إصدار تشريع جديد أو تغييرا في حساسية الجمهور ، فإن الصحفي الذي يمشي عند نقطة الفصل بين المظاهر والواقع سوف يشعر على الأرجح ، من وجهة النظر الشخصية ، بأن كل المظاهر تنطوي على الفس ، وبأنها مصطنعة ومتلاعب فيها لأسباب خارجة تماما عنها . وإن الاتجاه الشخصي الذي ينجم عن ذلك قد يكون الجراءة الفكرية التي مع ذلك لا تتعارض بالضرورة مع الأمانة الفكرية ومع الاحتفاظ بنماذج عالية فيما يختص بالأخلاق الشخصية .

وبتقدينا هذه الميزات للاتجاه الصحفي كدنا أن نهمل الميزات الأبسط والأوضح للسهولة التقنية في معالجة وتنسيق ومعاملة الكلمات والرموز بحيث إذا اتخلت في مجموعها أنتجت مؤقنا الصورة الكاملة لحقيقة مرسومة حول حدث أو قصة .

وإذا نظرنا الى الصحفي من زاوية مهارته التقنية ، كعامل أو كصانع ، اعتبرنا لاشرا للأخبار ، فهو قادر على تقديم صور للمال في أشكال ظاهرها واضح ومجسد وبسيط ودرامي ، وفي أشكال خالية من التجريد أو الأكاديمية أو التعقيد .

وهذا الوجه الأخير ، وجه المهارة التقنية والجمالية للصحفي ، لا يشكل فقط منهجه المهني ، ولكن يكون سببا كذلك لتقدير الآخرين له .

### استخدام الاتجاه الصحفي :

يمكن دراسة صفات الصحفي كإخصائي إعلام من زاويتين : أولا من زاوية الوظائف الاجتماعية للصحافة وتأثيرها الاجتماعية ، ثم من زاوية علاقات هذا الاتجاه بالعمل الفكري أيا كان ، دون أن نستثنى العمل العلمي والفني والمعرفة الواسعة المتمسكة .

### الإنعاج الاجتماعي والوظائف الاجتماعية للصحافة :

للصحافة بوصفها نشاطا معنى واحد في أوساط اجتماعية مختلفة لن تحتاج لاتجاه صحفي لو لم تكن هذه الأوساط موجودة . وهكذا نجد أن الصحافة لا تلائم

الافتات محدودة من العوالم الاجتماعية . وفي مجتمع ضيق حيث تكتسب كل المعرفة المتاحة بالتجربة المباشرة والشخصية ، لا ينمو الاتجاه الصحفي أو لا يكون الاجزاء من أدوات الادراك والمعرفة العادية لكل فرد من هذا المجتمع . ينطبق ذلك أيضا على درجة التفاهل التي تميز مجتمعا من المجتمعات . لأنه اذا كان جميع أفراد مجتمع ما معدين ليهيئوا بالتجربة المباشرة جملة أحداث هذا المجتمع وأنشيطته ، فإن الطرق العادية للاتصال الشخصي تكفي لنشر الأخبار في هذا المجتمع .

وعندما يزداد النمو التقني لجماعة ما الى الدرجة التي تصبح معها أغلب قواها ومشكلاتها الرئيسية بالغة التعمد وبالقلة التجرد وبسيدة كل البعد عن الخبرة الفردية، تظهر حينئذ حاجة للتجسيد ولتجسيم المعاني ، حاجة الى تخليص الأحداث والمشكلات من تجردها وتمقدها (١)

يصبح الصحفي إذن ضروريا بعد وقوع بعض الأحداث الاجتماعية التي تتفق وظهور الحضارات الكبرى وزيادة التفاهل في المجتمع وتطور الإجراءات الادارية والعلمية والتقنية والصناعية المعقدة التي لا يمكن أن تفهم على مستوى الفاعلية الا من محترفين متخصصين وذوى خبرة عالية .

والصحفي حين ينسى اختصاصه المهني في قطاع تقني مجرد من المجتمع أو في العديد من هذه القطاعات ، وحين يمزج هذا الاختصاص « بأهليته للاتصال » ، فإنه يجعل مجالات بعيدة أو معقدة في متناول جمهور يمكن أن يعتقد أنه مجرد من التجربة أو من الأداة اللازمة لكي يفهم الأحداث والمشكلات مباشرة في عبارات مناسبة . وغاية القول فالصحفي ضروري أو يبدو كذلك في مجتمع جماهيري .

أما الوجه الثاني للوظيفة الاعلامية للصحافة فيتعلق باستخدامات الاعلام في مجتمع ذي بعد كبير . لقد لاحظت الجماعات المنظمة والطوائف الصناعية والوكالات الحكومية والجامعات ومنظمات كبيرة أخرى - أو هي تلاحظ - أن نشر الاعلام مرتبط بأهدافها الذاتية ، العامة أو الخاصة . ولا بد لها من استخدام أخصائيين في المسرحة وفي التجسيد وفي التبسيط وذلك لكي يقدموا بطريقة أكثر تأثيرا طلباتها الخاصة

---

(١) في بحث لفرد شوتر بعنوان « المواطن الواسع الاطلاع » بحث في التوزيع الاجتماعي للمعرفة يصور هذه المشكلة بطريقة مختلفة بعض الشيء ولكنها مماثلة ، فهو يصف فيه ثلاث نماذج مثالية ، الخبير والمواطن الواسع الاطلاع ورجل الشارع كممثلين لثلاثة أشكال متدرجة للمعرفة الاجتماعية ( راجع مجموعة المؤلفات ، المجلد الثاني ص ١٢٩ وغيرها ) . ان بحثنا هذا عن الموقف الصحفي يتركز على بعض الأوجه التي لا يدرسها شوتر الا لمّا . ( راجع كذلك والتر ليبمان ، « الجمهور الوهمي » نيويورك ، هاركرت وبريس وشركائهما ١٩٢٥ ) : « ان المجتمع الحديث لا يراه أحد وهو غير مفهوم على الدوام ولي مجسوم . ان جزءا منه يراه جزء آخر . وان سلسلة من الأعمال تلمعها جماعة ، وسلسلة أخرى تكون مفهومة بالنسبة لجماعة أخرى » ( ص ٤٢ ) .

لجماهير بعيدة • لم يكن إذن مصادفة أن تبدأ العناية كهنة مع بداية الصحافة كهنة • لأن اعتماد الصحفي للاعلام ينمو ليستجيب الى الحاجة الى بديل لمصادر الاعلام حين تكون مصادر التجربة الصحيحة او المباشرة غير متاحة • ولكن هذا الموقف الذي يكون فيه الفرد غير قادر أو معتبرا غير قادر على تقويم المشكلات والأحداث بمصطلحات الخبرة المباشرة ، هو على وجه الدقة الموقف الذي يسمح بالغش والدجل والتخادع على اوسع مدى • ذلك أن المبالغة الواعية للاعلام لا تكون ممكنة الا اذا كان الوصول الى الاعلام الصحيح أو الى المصادر المباشرة للخبرة يشوبه تعقد الأحداث والمشكلات ، تشوبه تكنولوجيا مجتمع ما وأبعاده ومتغيراته ومشاكل ذلك (١) •

ان نمو مجتمع معقد يعنى للصحافة مجالها وعلة وجودها ، ولكن سوء استخدام الصحافة يقلص لها وسائلها •

### التجسيد :

ولكي يتفادى الصحفي التجريد وبرودة الموضوعات الصعبة والمجردة ، يحاول ايجاد الصورة أو الشخصية التي تجسد آراءه ويتعامل مع الصورة أو الشخصية عوضا عن الفكرة ، مما يسمح له بالاتصال على مستوى يمكن فيه الحصول على فهم جمهور واسع من غير المحترفين • وغالبا تخطئ مميزات الشخصية لمعالجة صحفية فتأخذ في السيطرة على الفكرة • وهكذا تتغلب العادات الفردية والمغامرات الغرامية وشغل أوقات الفراغ والطابع الشخصي أو عدم وجود طابع لهذه الشخصيات على ما كان يجلب في الأصل اهتمام الصحفي بهم (٢) •

(١) راجع لبرجوركو Leo Gurko في كتابه «Heroes Highbrows and the Popular Mind» New York 1963

« أن التخصص الهائل الذي صاحبه انتشار المعارف العلمية والتقنية قسم الحياة الى قطع أصغر وأعلى أهمية متزايدة لحارس كل قطعة • وبعد وقت معين أصبح هذا الحارس الخبير المحترف الذي يسبب معرفته الثمالة لجال وحيد ( وغالبا جهله التام بالباقي كله ) يقيم نفسه واسطة بين مجاله والجمهور في مجموعته • وان تركيزه على مجال واحد على حساب أي نوع آخر من المعرفة كان منسجما هاما في وظيفته كخبير » ( ص ٢٢٦ )

(٢) راجع Lowenthal في كتابه «Biographies in Popular Magazines»

أميد في American Social Patterns. تقديم وليم بترسن ، جاردن سيتي ١٩٥٦ ، ص ٧١ « يبدو السيرة الطريق الذي يستطيع النسان متوسط أن يوفق به بين اهتمامه بالانتماءات الهامة للتاريخ وحبها الآخرين الخاصة » • وأيضا في ص ١٠٨ - ١١١ : « ان الدور الهام للتألف في كل ظواهر الثقافة الجماهيرية لن يكون قط موشع الاهتمام الكافي • ان الناس يشعرون برغبة كبرى من جراء التردد الدائم للتمناج المألوفة • لم يتر احد قط على هذا الأمر • وان التراجع فريدا ما كنا نعرفه دالما • » ( ص ١١٠ ) •

وهكذا في حالة أينشتاين ، قامت المعالجة الصحفية بلفت النظر الى أطواره  
الغريبة : تسريحة شعره ، كرهه لصابون الحلاقة ، ذهوله ، تفضيله ارتداء الملابس  
المقديمة الخ . . . ، كل ذلك على حساب تقديم مؤلفاته التي وصفت بطريقة مجردة  
تؤدي الى ألا يتمكن من فهمها سوى العدد القليل جدا من الناس (١) .

ان البحث عن المحسوس دعما يسهل فهمه ، المقدم بهذا الشكل من المعالجة  
الصحفية يؤدي الى « البطل » او الى « الكوكب » اللذين يجسدان ويرمزان بحجم أكبر  
من الطبيعي الى مجال من الجهد ما كانت تتاح له فرصة البروز لولا هذه المعالجة . فمنذ  
اللحظة التي يحاولون فيها جعل « الكوكب » بارزا ، تصبح صورة الشخص المقدم  
صناعية مؤقتا ككوكب . ولا بد أن تبرز فيها الأوجه الدرامية وبعض السمات التي  
تخلق خلقا في الشخص نفسه حتى تستكمل صورته الصحفية أو بحيث تصبح صورته  
بعيدة تماما عن مميزاته وصفاته الحقيقية (٢) .

وبهذا المعنى ، لا يكتفى الصحفي بوصف فعل المظاهر والحقائق المختفية وراءها  
بل يذهب الى حد خلق مظاهر أو مظهر الحقائق .

### الصحافة في العلاقات العامة

ابتداء من نموذج الصحفي الخالص كما وصف آنفا ، يمكن أن توجد سلسلة  
كاملة من المهن المعاونة نستطيع أن نجعلها تحت اسم الصحافة التطبيقية ، وهذه المهن  
تشمل وظائف الاعلام أي أخصائي الاعلام في المنظمات الكبرى وأولا هؤلاء الذين يعتنهم  
هذا اللفظ في الحكومات . وهكذا يترجم أخصائيو الاعلام وثائق الاجراءات التي  
تكون في الغالب معقدة وعلمية ومجردة ، والتي يقوم على تحريرها تقنيون شبه مثقفين ،  
في صيغة درامية وشخصية ومقصودة ، يمتاز بها النموذج الصحفي الأساسي .

ولكن يجب أن نضيف أنه بوصفه مستخدما في مؤسسة متخصصة ذات مصالح  
خاصة فإن عمله يفترض استبعاد الأخبار التي لاتخدم هذه المصالح المتخصصة واخفاء  
نواحي الضعف والرائق الأصلية وصيافتها في عبارات تسمح بمحابة المصالح  
الإيجابية لهذه المؤسسة .

---

(١) Orrin E. Klapp, «Symbolic Leaders. Public dramas and Public Men», Chicago, 1964. Aldine Publishing Company.

وخاصة الفصل الثامن « لسيج البطل » ، ص ٢١٧ ، لوصف للعلامات الأخرى للرجال النظام : سترات  
الصفوف المحركة ، النظارات ، الشراوب ، القبعات ، انابيب الرائد . الخ

(٢) راجع « الزمن الذي يتقنى » Edgar Morin, «Le temps qui court 1967»

وفى الحدود التي ترضى الصحافة فيها هذه الاستخدامات ، فانها تهتم إحدى خصائصها الأصلية والأساسية وهي الكشف عن الخلافات بين المظاهر والتراكيب غير الظاهرة . وعلى العكس فانها تقلب حينئذ هذه العلاقة بما يسهم فى صنع مظاهر منتحلة وفى خلق حياة عامة مزورة .

وللاسف فى مجتمع معقد تتمدد فيه مصادر الاعلام وتنوع ، كثيرا ما يضطر الصحفي ومؤسساته فى وظيفتهما الأساسية القائمة على نشر الاخبار ، الى قبول الصحافة المنتحلة فى شكل « الاخبار الممنوعة » ، والمقالات المكتوبة مقدما ، وذلك عوضا عن العمل الصحيح على الطبيعة الذى يجمل من الصحافة شكلا خاصا من الفن (١) .

وفى البحث السابق يطرح الاتجاه الصحفي من حيث المبدأ الصحافة بوصفها مهنة ، وإن مفاسد الاتجاه الصحفي انما يعود الى تسخير للصحافة فى غايات مستقلة عن أهدافها الأصلية .

ولكن يجب أن لا ننسى أن الصحافة بالمعنى الأصلي للكلمة هي « طريقة تفكير » واسلوب لرؤية العالم وابتكار صورة متميزة منه . وأن ما يهم فهمه هنا هو أن طريقة التفكير الصحفية يمكن أن تنفصل عن مهنة خاصة وتطبق على ميادين غير ميدان الصحافة نفسه ، أو ميدان مراقبة الاعلام وتشويهه البيروقراطي . أن تعتقد وتفاير المجتمع الحديث وطابعه المجرد وفروقه الاجتماعية تجبر كل الذين يريدون الاتصال بالغير من ليست له التجربة المباشرة مع الأحداث أو مع المظاهر المبلغة على أن يقوموا بذلك فى اسلوب وفى طرق تتبع من الاتجاه الصحفي .

---

(١) داجع Daniel J. Boorstin «The Image, or what Happened to the American Dream New York 1962.

« ... ان نظاما فى الاعلام العام يكتفه ينتج على الدوام مؤيدا من الاخبار « المصورة » ومؤيدا من الأحداث المنتحلة .. ان البلاغات الصحفية التى تفرج يوميا فى دلم كاملة من مكتب امضاء الكونجرس ومن سكرتارية الصحافة الملحق بمكتب الرئيس ومن مكتب المحققين الصحفيين لدى المؤسسات والجمعيات الخيرية والجامعات لتشكل انواعا من تشريرات الكونجرس التى تغطي كل الحياة الامريكية . وكلئى يكتل لعدت «نظام» من الاعلام .. يجب توزيع بلاغ صحفى طبقا للاصول المرمية .. هذا «الخبر المنوع» هو خبر غير تاجس يجب التمكن من حفظه الى الوقت المناسب .. يكتب النص فى الماضي ولكنه يصف فى الحاضر حدثا لم يقع بعد عندما يتم توزيع « الخبر المنوع » .. ان نادى الصحافة الوطنى ( ذى ناشيونال برس كلاب) لديه فى تامات اجتماعاته فى واشنطن صندوق كبير يملا يوميا بأخبار البلاغات المسطحة بحيث لا يضطر الصحفي الى الردود بالكاتب التى ترونها . وفى سنة ١٩٦٧ كان يوجد من وكلاء الصحافة الحكوميين الناطق بهم اعداد البلاغات الصحفية ضعفا عدد الصحفيين الذين يقومون بجمع هذه البلاغات ( ١٧ - ١٩ ) .



ومما قلنا ، فإن هذا الأسلوب وهذه الطرق تقوم على استخدام المرحلة والتجسيد والمحسوس والتبسيط والتصور .. الخ (١) .

### المعالجة الصحفية

إن استخدام التقنيات الموضوعية للصحافة يمكن أن ينفصل عن الصحافة المهنية بمعناها البدائي والأصلي .

وحين يحدث ذلك يظهر ما نسميه بالمعالجة الصحفية التي تستخدم مناهج الصحافة - تجسيد ، تبسيط ، بحث عن الصورة ، الى جانب اعلام غير مفهوم - وذلك في منشآت غير صحفية .

وهكذا كلما ظهرت فكرة أو نظام أو انجاز تكنولوجي أو عمل فني أو شكل جديد ، في مجتمع مشبع بالتقاليد الصحفية البالغة التطور ، لا يلبث هذا الجديد أن يكيف ثانية وأن ينشر ويوزع بعد أن يخضع للمعالجة الصحفية .

لالفن الحديث أو تجديد ما يطرأ على الفن الحديث ، يحصل في شكل صحفي بعد فترة قصيرة نسبيا على المفاتيحية والغرابة والجازبية التي يتميز بها نظام « البطل » أو « نظام الكوكب » .

ونظرا لجازبية المعالجة الصحفية بالنسبة لجمهور أثير اهتمامه وفلت حلة هذا الاهتمام بهذه المعالجة ذاتها ، فإنه من الأرجح كثيرا أن يتمتع الحدث الجديد بشهرة تكاد أن تكون وقتية بفضل المعالجة التي خضع لها ، وفي نفس الوقت بفضل وسائل النشر الجماهيرية التي تحظى بها هذه المادة .

واليكم النتيجة التي تترتب على ذلك : انه من الممكن أن يبرهن أنه خلال المائة سنة الأخيرة قصرت بلا انقطاع المدة التي تفصل بين ظهور أسلوب أو شكل أو تجديد وبين قبول الجمهور له بحيث أصبح من المؤكد في الوقت الحاضر أن يسرع الناس الى

---

(١) راجع I. Gerver et J. Benjamen, «Toward a Sociology of Expertness» in Social Forces Vol. XXXII No. 3, Mars 1954.

« أن الخبراء الرمزيين يستطيعون أن يصنفوا ما هو مقدر ليس فقط بالنسبة للجمهور البعيد ، ولكن أيضا بالنسبة للناس الذين من وسطهم ان كانت ظروف الاتصال معقدة ، بما فيه الكفاية بحيث لا يمكن أن يفهم مستهدفا في الحال ودون سواء بمصطلحات جبرية يشتركون فيها مباشرة .. وفي حدة مبادئ نشاط فان الخبر الرمزي لا يكون خيرا حقيقيا ولكنه يبدو كثير . ولا يكون الخبر الرمزي بالفرودة شخصا حيا فريدا ، قد يكون مجموعة هويئات وعريفات تقليدية تتجسد . كما حدث ذلك بالنسبة لرامبرانت وبيتهوفن وبيات وفان جوخ .. وكوبرنيك وهاليو .. » ( ص ٢٢٧ - ٢٢٨ )

قبول تجديد ما اذا ما خضع هذا التجديد للمعالجة الصحفية ، بل غدا من الممكن أن يقبل هذا التجديد قبل أن يفهم جيدا ويطوره صانعو أنفسهم ، ان الفرد بوصفه عاملا أو مجددا يجتنب في عالم الكواكب والشخصيات العامة قبل أن تكون لديه فسحة من الوقت يقيم فيها تجديده وينقده ويطوره (١) . وثمة احتمال كبير أن تعمم أفكار طيبة أساسا أو تفرغ أو تطهر قبل أن يبدو معناها الحقيقي ، أو ان كانت الأفكار العامة ناقصة فإنه يمكن الحصول صناعيا على التأثيرات نفسها بإرادة اختيارية للتجريب والاثارة .

وان صدق ذلك على المجددين فإنه يصدق أكثر على الجمهور الذي يجب أن يكون مستعدا ، اذا اراد أن يكون « على علم » ، لأن يقفز من نهج خلقته الوسائل الصحفية الى نهج آخر ، والأفضل أن يحدث ذلك قبل أن يتم الوصول الى قمة كل نهج تال . ولايد للفنان أو المجدد أن يتعرض لخطر أن يبطل نهجه قبل أن يكمل عمله . واذا كانت لشهرته الجديدة قيمة في نظره ، فعليه أن يتعلم ترك ما يفعل وما يصنع قديما كلما ظهرت أساليب جديدة . ومن هذه الوجهة فإن مخاطر النجاح الذي تم الحصول عليه بوسائل صحفية تكون أضخم من مخاطر الفشل (٢) .

وثمة أشكال كثيرة للمعالجة الصحفية . وأكثرها وقوعا يقسوم على مزج بين المعالجة الصحفية نفسها والمعالجة الأكاديمية ، هنا يتبنى على الصحفي المفسر أن يشرح في عبارات صحفية كيف تم في الواقع عمل جليل في حد ذاته ، أو كيف يمكن لهذا العمل أن يفهم في عبارات أسهل وبمبسطة . انه مصدر صناعة التعليق . ولكن لا يكفي أن يبسط الصحفي ( أو اللاصحي صاحب لمعالجة الصحفية ) ويشرح العمل الاصيل . ان عليه أن يضيف عناصر الى هذا العمل والى التعليقات السابقة ليبرر تعليقه ذاته . فنشهد حينئذ «تحسينات» صحفية للعمل الاصيل بيد أفراد غير قادرين على القيام بهذا العمل ولكنهم يعرفون كيف يتحدثون عنه .

---

Bernard Rosenberget Norris Hiegel «The Vanguard Artist Portrait and Self (١)  
Portrait, Chicago, 1965.

» ان عددا كبيرا جدا من الفنانين متعاضدوا بسمعة فائقة ، يكونون بلا خبرة . ان طريق النجاح سبيله التدوير الهادي وفترة طويلة من العمل المنظم بعيدا عن مشاكل الجماهير . وللحيلولة دون أن يسبقنا الوقت ، يجب أن تتوفر الاعداد المناسب وان يتاح للتقدم الوقت الكافي له . ان الفنان الصحفي الطموح كل الطموح منذ البداية والذين ينجحون في السوق يكونون مسمومة في مقاومة الدفع الذي يحيط بهم » ( ص ٧ - ٨ )

(٢) راجع برودنبرج وليجسل « ينتقد الفنانون انه لكي يصل معلوم الى جمهور ذي أهمية ما ، يضطرون الى اتخاذ طرق سلوك غريبة منهم ، ان عليهم أن يقبلوا أيضا ان جزءا كبيرا من أعمالهم سوف يقتنيه مشترين لا يتدولونه من الناحية الجمالية . وهم يكونون سعداء حين يحصلون في ذلك ، ولكنهم نادرا ما يستطيعون أن يعتقدوا ان الأمر كذلك . ولعل من هؤلاء المقتنين يمكن ان يمتلكوا « الصلابة الكاملة » . ان حجم مجموعة المشترين غالبا ما يمنع الصور من أن يسرق من هو « زونه » .

نظرا لأهمية المواجهة الصحفية بوصفها نشاطا متميزا عن الصحافة في ذاتها ، كان من الضروري أن نقص استعمال الاتجاه الصحفي بواسطة غير الصحفيين في مواقف غير صحفية . ان أبسط تطبيق لهذه الطريقة ربما كان قيام أحد العلماء أو الخبراء باستعمالها أمام أترابه الذين يستطيع أن يعتقد أن لديهم خبرة وتقنية ومعارف لا تتطلب تبسيطات الاتجاه الصحفي . ان السبب الذي من أجله يتكرر هذا الأمر كثيرا ليس بينا في الحال . ربما فرشت طرق التفكير المكتسبة في العلاقات مع الجياعات الخارجية وجودها بحيث يقدم المتخصص أعماله لمتخصصين آخرين في أسلوب كان في الماضي يعد غير مناسب .

ومهما يكن سبب هذه الظاهرة ، فإن للمتخصص كمستقبل لخبر يجب أن يأخذ حذره أمام الأشكال التي يتخذها هذا الخبر والتي يمكن أن تضلله ، على الرغم من أنه هو بذاته كناشر أخبار ، يستخدم الأشكال نفسها .

ان السنة الصحفية في تقويم الكتب ترتبط بهذه النشاطات ، انها وسيلة مقدمة للتغلب على كتلة المعلومات البالغة الضخامة التي نجدها في المجلات التقنية وللتخصص . ان هذه الكتلة من الضخامة بحيث ان المتخصص يكون مضطرا في غالب الأحيان الى الاشتراك في المجلات التقنية وإلى الاتجاه الى خدمات نشرات تقدم معلومات متخصصة وإلى خدمات بعض الطلبة من ذوي المؤهلات للحصول على ملخصات وعلى موجزات وعلى منتخبات كتب وأبحاث ومقالات لم يتمكن هذا المتخصص من قراءتها .

ان الاتجاه الصحفي لمزدوج : فهو ذو طابع نوعي أمام معطيات عمل علمي وطابع نوعي أمام الجمهور (١) . ويعامل الجمهور كمستهلك ، أو بمعنى آخر يجب على المعرفة المنشورة أن تثير وتحت وتبهج وتملي وتقاضي وتوقظ اهتماما مؤقتا وذلك دون أن تستدعي جهدا من جانب المستهلك . ولكن الاتجاه المثقف الصحيح يجب أن يعامل المتنبئ كمنتج . يجب أن يعلمه كيف يتعامل مع التعقيد والصعوبة والطابع المجرد وما الى ذلك ، ومع معطيات مادته العلمية في عبارات خاصة بهذه المادة . وحين يسهم الاتجاه الصحفي في عملية التربية ، يعامل المنتج الاحتمالي كمستهلك ، وان ادراكه لمادة تخصصه يشوه بادخال عناصر درامية فيما يمكن أن يكون عملا تقنيا جادا ومتصلا وممتدا وخاليا من التمسرح . ان توجيهها مهنيًا مؤسسا على انتظار الدراما في العمل يؤدي الى خيبة الأمل .

والأهم من ذلك أيضا هو أن استعمال المسرحة الذي لا يمكن فصله عن الاتجاه الصحفي يؤخر دخول المبتدئ في العمل ذاته بحيث يعلم بصعوبة ماهية العمل .

(١) راجع بنسيمان وليلنفلد ، مصدر سابق .

ولنتكرر مرة أخرى قولنا معادا ، فانه يعلم عن موضوع العمل ، بدلا من أن يعلم العمل نفسه (١) .

لقد درسنا أولا الاتجاه الصحفي من وجهة جلوره الاجتماعية ، ثم فحصنا « نزوح » الاتجاه الصحفي خارج الصحافة المهنية بمفهوم المعنى وظهوره في ميدان التعليم ، وأظهرنا أنه أحل محل المناهج التعليمية والتدريسية الأكثر تقليدية التي تتعلق بالتدريب العملي ، مناهج تقديم تتعلق بنشر المعرفة بين الجميع .

### الصحافة في العمل الفكري :

ولندرس الآن الاتجاه الصحفي من ناحية أصل وتكوين المؤلفات العلمية والفلسفية والفنية والأبحاث التاريخية المتممة .

ولسوف نميز هنا بين نموذجين مثالين : المضمون الذي يستجيب الى « ضرورة داخلية » والمضمون الذي يستجيب الى « ضرورة خارجية » . وان المضمون الذي يستجيب لضرورة خارجية هو الذي لم يتكون الا ليصادف مصيرا وليسفعل مكانا في صحيفة أو فترة من الزمن خلال برنامج اذاعي مثلا أو مؤتمر شعبي . أما المضمون الذي يستجيب الى ضرورة داخلية فانه يشمل كل الكتب والاعمال الفنية والتقارير العلمية وما الى ذلك التي أعدت خارج كل انشغال في شأن مشكلات داخلية أو تجريبية أو نظرية ، خارج مدركات أو ارتباطات المؤلف أو الفنان الذي يعتبرها محررات أولى والذي يرى أنها جديرة بدراسات وشروح لاحقة ولكنها لم تتولد ، بمفهوم المعنى ، من ضغوط خارجية مباشرة . ان الاهتمام بالمضمون وحده يؤدي الى العمل الذي ينبغي القيام به .

ان أعظم مركبة للنشاط الصحفي واتجاهه هي ، على العكس ، ضرورة كتابة شيء ما في سبيل مصير ، وشيء ما يكون له حجم كاف لشغل الفراغ أو الزمان المخصص له . وهكذا على حد قول كارول كراوس ينبغي على الصحفي أن يكتب حتى لو لم يكن لديه

---

(١) راجع William James, «The Principles of Psychology» New York 1896.  
« يمكن أن تميز » بصفة عامة ومعليا نوعين من المعرفة : نستطيع أن نسمي الأول معرفة والأخسر معرفة من موضوع .. عند القول القادة على الكلام ، يوجد حقيقة نوع من المعرفة بخصوص كل شيء ، فهم يستطيعون على الأقل أن يصفوا الأشياء ويحددوا لحظة ظهورها . ولكن على وجه العموم كلما قللنا من تحليل شيء قل عدد العلاقات التي نذكرها فيه قل ما عرفنا من موضوعه ، وكلما كانت دالتنا عليه من طراز المعرفة المباشرة . ولهذا فان نوع المعرفة ، حين يمارسها العقل البشري ، يكونان الفاظ نسبية . أي ان الفكرة نفسها من شيء يمكن أن تسمى معرفة في موضوع هذا الشيء بالمقارنة بفكرة أبسط أو معرفة مباشرة لهذا الشيء مقارنة بفكرة أوضح وأبين من هذا الشيء ( ص ٢٢١ - ٢٢٢ ) .

شيء يقولو وأن لدى الصحفي شيئا يقوله لأن عليه أن يكتب (١) . وأمام هذا القسر ، إذا وجد للمصحفي شيئا ما يقوله ، تم كل شيء على ما يرام والا فإن عليه أن يلجأ الى وسائل متنوعة .

واجدى هذه الوسائل هي أن يولى وجهه شطر هذه المجموعات من الأعمال التي قلنا عنها آنفا أنها تستجيب « لضرورة داخلية » وأن « يجعلها في متناول الجميع » وأن يشرحها وأن « يوضحها » وأن يجعلها مسلية ودرامية وما الى ذلك . ويمكن كذلك أن نذهب الى أبعد من ذلك ، وخلال هذه العملية ، يمكن « تحسين » هذه الأعمال بتخليصها مما يرى أنه يضايق الجمهور أو أنه فقط يسته أو أنه يهدد هذه الجماعة ذات المصلحة أو تلك . هنا يعمل الاتجاه الصحفي في الواقع كوسيط بين جماعتين : فقيما يختص بالجمهور ، يقرر ما هو قادر على فهمه أو جدير بهذا الفهم ، وفيما يختص بمنتجي الأعمال ، فإن الاتجاه للمصحفي يقول لهم ما يمكن أولا يمكن أن يناسب جمهورا لاختصه الا بتعليم جد سطحي وبقدرة على الانتباه جد محدودة . وإذا استجاب منتج أعمال لضرورة داخلية باتخاذ هذا الاتجاه الصحفي فقد يجد نفسه مدفوعا الى أن يضفي على أعماله شكلا يختلف عن ذلك الذي كان يختاره لو لم يعتمد على بعض ردود أفعال الجمهور . ان الحد الذي يبطن عنده الاتجاه الصحفي يمكن أن يستخدم إذن في التمييز بين طبقات مختلفة من العمل الفكري بعضها عن بعض ، ابتداء من المؤلفات النظرية أو الفلسفية والأعمال الفنية الكبرى والدراسات النظرية الأصيلة من ناحية حتى الأعمال التعيسية و « المداخل » الى هذا العلم أو ذاك والكتب التي تقول كيف يصنع هذا الشيء أو ذاك والمنتخبات الأدبية والمختصرات وغيرها من ناحية أخرى .

ان التمييز الذي أجريناه بين الأعمال التي تستجيب لضرورة داخلية والأعمال التي تستجيب لضرورة خارجية ، يرسم في الواقع قطبي سلسلة مستمرة ، ففي طرف المجموعة يوجد ، على حد تمبير شوتز ، الخبر . وفي الطرف الآخر الصحفي أو الداعية . ونموذج المواطن الحسن الاطلاع الذي يصفه شوتز ، يوجد في مكان ما بين الطرفين (٢) .

(١) داجع Karl Kraus, «Beim Wort genommen» P. 214  
 و ان هذه السمة للاتجاه الصحفي بين عدد كبير من سماته تمت دراستها أولا في الكتابات الجسدية والهجالية لكراوس ، مثلا في : ان الفؤاد ليس هو في الغالب الا سحبا ينظر الى خلف » - المصدر السابق ص ٢١٥ ، الناشر : Kosel Verlag ، ميونخ عام ١٩٥٥ .

(٢) داجع Schütz, op. cit. p. 122 ... 123, et 123 ... 128.

ان جانباً من المعالجة الصحفية يقوم على تقديم الحجج التى تساند أو تعارض فكرة أو مشكلة ما بحيث يستطيع فهمها وقبولها دون الدخول فى التعميد وفى الطابع المجرد وفى شرعية المشكلة فى شكلها الاصيل ، وفى مجتمع معتد بمعالج اغلب الخلافات حسب تعقد الطرق القانونية والتقنية والإدارية والتنظيمية والاقتصادية . ان حق الخصوم التحقيق لا يظهر فى الحال ، ذلك أنه ، بصفة خاصة ، غالباً ما تظهر خلافات رئيسية وكأنها مشكلات قانونية أو تقنية ، غير مضرّة نسبياً ، ولكنها مجردة .

ان الجدل فى مستوى تجريد المشكلة الأصلية يصعب تقديمه فى الغالب ، خصوصاً أمام جمهور غير مختص لأنه يصعب الفهم ، فمن الصعب أن يوقف حوله شعور الاخلاص والهوى ، حتى لو تطلعت به حياة وتطور أنظمة وجماعات سياسية فى المجتمع . ان المعالجة الصحفية لهذه المسائل تقدم حلاً للمشكلة . وتستطيع تقنيات التجسد والتبسيط والتصور والخيال اللغوية والتشويه الصحفى للقصة ، فى أصعب الحالات ، أن تتيح وصفاً للأمر دون الاتجاه للتفكير المنطقى قط . ان اختيار الكلمات والشحنة انثائية لهذه الكلمات والانزلاق الناتج من معالجة الأحداث والتقديم التعاطف أو اللامتعاطف مع الشخصيات ، كل ذلك يميز تطبيق المعالجة الصحفية على المشكلات للمعدة . ان التفكير المنطقى يكون موجوداً فى الطريقة التى تعالج بها القصة بدلاً من أن يكون فى التفكير المنطقى ذاته .

ان البناء المحاجى أى ما يتخذ الشكل الأيديولوجى للحجة ، يلقى به جانباً فى هذا الاتجاه ، ذلك أن الشكل الأيديولوجى أو الشكل المنطقى للتفكير ينبه الفرد إلى التفكير فى أنهم سيقدمون له حجة . فهو يدفع لاتخاذ اتجاه نقدى ينبى أن تخضع الحجة فيه لنقد تجريبي أو منطقى أو مجرد مقاومة عاطفية . ان الشكل المحاجى فى طبيعته الأساسية يفترض أن « الشخص الآخر » مستعد لمقاومة الحجة ويدعوه لصياغة حجج مضادة . وعندما تستخدم أشكال المعالجة الصحفية هذه لا يوضع الفرد فى موقف جدلى ولا يحل ولا ينبه ولا يدعى الى استخدام قدراته النقدية . ان الحجة تقدم بحيث لا يعرف الفرد أن قولاً قد تم الباطل بالبرهان . واذا نجح التقديم ، قبل البرهان كسلسلة من الوقائع ومن الفروق الصائفة البسرة أو كوافع . لقد زوروا هذا البرهان . ان هذا الشكل من المعالجة الصحفية يجد تعبيره الأكثر تركيزاً فى « الإعلان البيئى » وفى المجلات مثل « تايمز (١) » وفى الحملات الاعلانية غير المباشرة . ولهذا السبب بطل العمل بالأيديولوجية

(١) مجلة أمريكية أسبوعية سياسية مصورة تدرج فى أكثر بلاد العالم ( المترجم ) .

كشكل للجدل في عالم حل المعالجة الصحفية فيه محل المعالجة الأيديولوجية أو  
انجذالية للمشكلات موضوع المناقشة (١) .

## الصحافة والعلاقات العامة :

لا يمكن ممارسة العلاقات العامة إلا في جو من الابتكار الدائم . ولكي  
تستطيع منشأة ما أن تنشر بانتظام بلاغات صحفية ، لابد لها من أن تنتج في  
فترات متقاربة نسبيا ، قصصا مثيرة عن الأحداث الجديدة التي وقعت لها ، اذ ليست  
الأنشطة الروتينية هي التي تقدم مادة اعلامية في مؤسسة ناجحة . وحينما ترغب  
مؤسسة ما في مزيد من الشهرة ، فان الافراء في زيادة عدد مبتكراتها التقنية  
يكون كبيرا . وان المخترعات التكنولوجية التي تتمتع بعطف الجمهور مثل العقول  
الالكترونية ذات القدرة العالية وآلات التعليم والتعليم الجماعي أو تحليل الأنظمة  
ومنتجات أخرى كثيرة من نفس النوع - على الرغم من قيمتها الدائية والخارجية -  
قد تتعرض لخطر التطبيق طببقا سيشا أو على الأقل ، لان تستخدم لأغراض ليست  
تقنية تماما ، وذلك بشكل أوضح بحيث تكون أكثر خضوعا لضرورات العلاقات  
العامة .

ومن أحداث هذا النوع ، انشاء الكراسي الجامعية ذات المرتبات الضخمة التي  
يعين عليها العلماء النوابغ خصوصا من أجل رفع « صورة » المؤسسة ، ووضع برامج  
دراسية خاصة ومحاضرات وانشاء دبلومات خاصة ومعاهد مختلفة للأبحاث .

## الصحافة والنشر :

لقد درسنا آتفا « هجرة » الاتجاه الصحفي خارج الصحافة الى ميادين  
أخرى . ولسوف نرى باختصار نتائج هذه الهجرة على نشر الكتب . ان الاتجاه  
الصحفي يجد نفسه في ميدان النشر في ثلاثة أماكن رئيسية ، فقد ترغب دار  
للنشر في أن تملأ كتالوجها فيما يتعلق بهذه المادة العلمية أو تلك ، لأسباب تتصل

(١) ان احدى النتائج الثانوية لهذه العملية هي ظهور لغة صحفية خاصة ، توارب لتعبر عن المعنى،  
وتحيط الكلمات المألوفة بمعان عامة جديدة تأثيرة للتعبير عن معنى مفاد للمعنى المطبق لها تقليدية.  
ولفلا من ذلك فقد ابتكرت لغة وأملاء وكلمات جديدة وحذفت حروف النح . مما يحط من المسارسة  
التقليدية للغة ويدخل اشكالا جديدة من المعجمة . ولكنه يسهل المعالجة الصحفية للأحداث كما وصف  
آتفا . راجع على سبيل المثال دوايت مكدونالد Against the American Grain الناصر لنتائج  
بوكس ، ليوبولد ١٩٦٢ ص ١٢ - ١٣ وكذلك الإبحاث المنوية The String Untuned ص ٢٨٩  
وما يسمدها و The Decline and Fall of English ص ٢١٧ وما يسمدها ، راجع كذلك كارل  
Krauss في كتابه : Untergang der Welt durch Schwärze

بالمناقشة ، وهكذا تتمكن من أن تطلب أو تنتج كتباً ( تسمى غالباً « لا كتب » في التجارة ) ما كانت لتظهر في ظروف أخرى . ويدخل في هذه الفئة الكتب المدرسية والمداخل المهنية للتجارة غير المتخصصة ، فالأمر يتعلق هنا بمنتجات تستجيب لضرورة خارجية . والمكان الآخر الذي نلاحظ فيه الاتجاه الصحفي في ميدان نشر الكتب يكون في الغالب بين الناشرين ، فالناشر الذي يتلقى مخطوطاً من خبير في هذه المسألة العلمية أو تلك ربما يرى أن غموضه وتشوش أسلوبه يتطلبان إعادة ترتيبه وتوضيحه . وعليه فإن الناشر يخضع لنموذج شوتر للمواطن حسن الاطلاع ولكن الناشر يستطيع أن يتبع نموذجاً آخر تم وصفه آنفاً ، وهو القائم على توقع استجابات الجمهور لأعمال أصلية أو جدلية أو صعبة أو مقلقة بشكل أو بآخر . ويستطيع أن يتدخل بحذف جزء من الكتاب أو تشويهه أو القلته . ويمكن أن يحدث ذلك ، بصفة خاصة ، حين يتعلق الأمر بترجمة مؤلف هام الى الانجليزية سواء كان من لغة أجنبية أو من رطانة تقنية ، وفي هذه الحالة كثيراً ما يعلن الناشر انه ألغى جزءاً كبيراً من النص لا يناسب القارئ الانجليزي . ان الناشر يتخذ هنا ، وهذا واضح ، الاتجاه الصحفي .

والمكان الثالث الذي يمارس فيه الاتجاه الصحفي في ميدان نشر الكتب نجده في قطاع كتب المراجع . ان نمو عالم تكنولوجيا معتقد وعالم الصحافة بكل معاني الكلمة أدى الى ضرورة الاعلام عن مواد علمية وميادين لا يمكن أن يطلب من فرد أن يعرفها مباشرة . ان كتب المراجع « للمواطنين الحسنى الاطلاع » يمكن أن تخدم هدفاً شرعياً جداً ، ولكنها يمكنها أيضاً ، وبلا شك ، أن تخدم اغراضاً صحفية وأن تسمح لناشر المعارف بين الجماهير وللمعلق والمحرر وغيرهم بأن يرتدوا رداء التعمق العلمي الذي لا يملكونه . ان تأثير الصحافة لا يظهر فقط في تكاثر دوائر المعارف والمؤلفات الوجيزة وكتب المراجع ، ولكن أيضاً في الدقة التي تراجع بها كل هذا المطبوعات وتزاد لتشمل الأحداث الأخيرة بحيث تصبح شبيهة بالدوريات . هذا على الرغم من أن هذه الزيادة قد تتعلق بأحداث جانبية أو ذات أهمية عابرة بالنسبة لجمال خاص .

بقي أن نبحث في وظيفة أخيرة للاتجاه الصحفي ، لا كما يطبقه الصحفيون فحسب ، ولكن كما يطبقه العلماء في تقديمهم لمساهماتهم العلمية أيضاً .

في وقت من الأوقات ، أيا كان ، وفي أي ميدان من ميادين البحث يكون مجموع المعارف التي تخص هذا الميدان مجزأ وغير منظم وفي أغلب الأحيان مفسوشاً . ان عدداً كبيراً من الأفراد يبحثون في مجموعة من المشكلات غالباً بلا روابط بينها ، كما ان عدداً آخر يعمل في حدود تقاليد فكرية غالباً ما تكون متناقضة أو متعارضة أو غير منسقة . ان قلنا سديداً من المعارف المتعلقة بهذا الميدان أو ذاك قد يقلل من أهمية هذا الميدان في نظر الذين يفترضون مسيراً موحداً ومنظماً يتطورا للمعلوم .



وللمعارف .، وحين تتقلب الأهداف الاعلانية على غيرها ، فإن تقديم الحالة التي يوجد عليها الفن أو العلم يتطلب أو ينسحق وينظم ويمسح ويوحسد بحيث يكون المحترقين جميعا فئتان من المعطيات فى ميدان نشاطهم .

١ - توافق الفئة الاولى معرفة داخلية وتشمل المعطيات العملية للعمل فى الداخل .

٢ - والفئة الثانية ، وهى تكامل كاذب للمادة العلمية ، معدة لأن تقدم لغير المختصين وللمبتدئين ولعامة اللادربين الخارجين الذين يؤثر نشاطهم على هذه المادة العلمية .

وقد يبدو ذلك كضرورة احيانا : الا أن المجهود الذى يبذل من أجل معاملة هذا النظام الكاذب كأنه حقيقى يؤدى فى الغالب الى تزوير المسادة العلمية كلها .  
وفضلا من ذلك ، فحين تغطى احدى المواد العلمية بالمنارعات والاختلافات من وجهة النظر التى تميز بالضرورة البحث عن المصرفة القائمة على حرية البحث واستقلال التفكير ، فإن مشكلة التوجيه ، داخل المادة العلمية ، نحو وجهة النظر هذه او تلك لهامة لا بالنسبة للجمهور والمبتدئ فقط ، بل بالنسبة للمحترف كذلك . فالعالم الصنحى فى الداخل يعمل هنا بقيامه بوصف الاتجاهات التى يستطيع الفرد فيها أن يجد طريقا للتعبير عن تعلقاته والتزاماته . وهو يصف فى آن واحد « الأعداء » مع وجهات النظر والمقائيد التى يجب تجاهلها واحتقارها والتى لا يحق لها إلا أن تنال قدرا قليلا جدا من الاهتمام .

ان صحافة من هذا النوع ضرورية للتنظيم السياسى لمادة علمية عقلية ، ويمكن مقارنتها ، داخل هذه المادة العلمية ، باستخدام الصحافة كجهاز لمراقبة الاعلام وتحريره بايدي أخصائى الاعلان والاعلام فى البيروقراطيات الكبرى .

بيد ان المعالجة الصحفية تتيح توفيقات أخرى مع المعرفة ، والتوفيق الغالب هو الشارح الصحفى الذى ينبئ عليه أن يبين بعبارات يفهما الجميع كيف تم بالفعل عمل له قيمته الخاصة أو كيف يمكن أن يفهم هذا العمل بعبارات أسهل وبمبسطة ، الشيء الذى يؤدى كما سبق أن أشرنا الى صناعة التعليقات حيث يلتصق كل تعليق على عمل أساسى ، بتعليقات أخرى بحيث تضيق الفكرة الأصلية ، التى ألوت جاذبيتها التعليقات وذلك فى خضم كتلتها الكلية . ولكن لا يكفى للصحفى ( أو للعالم غير الصحفى الذى يطبق المعالجة الصحفية ) أن يبسط وأن يشرح العمل الأصلى ، بل يجب عليه أن يضيف عناصر الى العمل الأصلى وإلى التعليقات السابقة ليبرر تطبيقه الخاص ، غالبا «على أساس معرفة أحدث» وينجم عن ذلك « تحسينات » فى العمل الأصلى يقوم بها أفراد ليسوا على مستوى العمل الأصلى ولكنهم يعرفون الكتابة عنه .

ووجد طريقة متعلقة بالادراك تشكل حاليا أهم جزء من الصناعة التقندية  
والتي يمكن ان نجد أصلها في الممارسة الصحفية ، وهي اقامة هيكل داخل احدى  
المراد العلمية يضم أهم شخصياتها التاريخية . ان نظرة اجمالية تلتقي على احدى  
المراد العلمية تبدو غالبا في نظر المبتدئ أو غير المختص كزبلة لهذا الهيكل  
بصحبة دليل ، يشاهد خلالها بعض الشخصيات ويستمع الى وصف سريع لحياتهم  
وأعمالهم تستخدم فيه تقنيات التجسيد والتبسيط وما الى ذلك ، والى تقدير  
أفضالهم النفسية ، وهكذا توضع شخصية في المكان الرئيسي من الهيكل والشخصيات  
الأخرى في أجنحته الثانوية ، حسب حال كل منها ، كما يحدده الناقد صاحب  
هذا الوصف . وهكذا تعطى لنا قيمة الشخصيات وقد ارتبطت بمادة علمية : فهذه  
الشخصية هي الأعظم والأهم وتلك تأتي بعدها ثم تتبعها هذه وهلم جرا . ان هذا  
الأسلوب القائم على تحديد الأفضال النسبية للرجال المرتبطين بمادة علمية ، كما  
لو كان هذا التحديد نهائيا ، لأسلوب ذو طبيعة صحفية ، انه في جانبه الأكبر  
تقليد لصفحات الرياضة في الجرائد حيث تحدد قيمة الرياضيين والفرق  
الرياضية اما حسب مكائتهم في مباريات الموسم واما بمقتضى الأقيسة الاحصائية  
طويلة المدى واما حسب استبانات الراى .

ان صناعة التعليقات هذه لفائدة أيضا للتنظيم السياسى لمادة علمية ذهنية  
حين يكون الأمر متعلقا بالاعتراف بعمل أصيل أو بعمل يمثل قيمة وإثبات من مدرسة  
فكرية منافسة أو معادية . وان كانت المفاهيم أو الاكتشافات موضوع البحث  
ضرورية حقا ، فيمكن الحصول عليها تدريجيا وسرا وعلى الاشارة عرضا على انها  
مصادر وحيدة للمعلم مدرسة فكرية حليفة لا الى علماء مدرسة معادية .

عرضنا في الحالات التى سبق ذكرها لتطور النموذج الفيونولوجى لاتجاه  
ما من حيث ارتباطه بشكل خاص من المعالجة الصحفية المتعلقة بانماط معينة من  
التركيبات الاجتماعية . وبولد الاتجاه الصحفي من الحاجة الى تقديم دورى لصور  
الصالح الى جماعات بعيدة غير قادرة على فهم بعض الجوانب الضرورية لمعاليم  
فى حدود تجربتهم المباشرة . ان الصحافة بوضعها الأقسى على أفضل وجه ،  
تؤدى وظيفة بالغة الأهمية فى خلق صور للعالم واعادة خلقها وإبرازها . انها تميل  
من قيم العالم ، حتى لو كان هذا التعديل منصبا على عملية التقديم التى تحاولها .

ولكن التطور ذاته للفنون والتقنيات التى توضع هذه الصور بين كيف  
يستطيع هؤلاء الذين يستخدمون الاتجاه الصحفي لأغراض غير صحفية ان يستعملوا  
هذه الصور وان يسيئوا استعمالها ، وذلك فى مجتمع تكون الحاجة فيه الى الاعلام  
شديدة الى الدرجة التى تبطل فيها هذه الحاجة اذا أفسحت ، فالاعلام يفرق  
الجمهور بسيله .

ولكن فضلا عن فرط الاعلام للقدم للمجتمع في مجموعه ، تلاحظ ان المعالجة الاعلامية قد دخلت في عدد كبير من الميادين الأخرى ، بل انها تستخدمها اشخاص لا يعون ، مهنيا ، الاتجاه الصحفي ، وهكذا حين تدخل المعالجة الصحفية بسعة في الانظمة الرئيسية لمجتمع ما وفي طرق تفكيره فان خلق الصور والمظاهر يصبح عملية مستقلة تكون فيها أنظمة المجتمع وتقنياته ومناهجه ثمرة الجهد المخصص لصنع الصور .

فالضرورة لم تعد اننا نأجأ ثانويا للعمل النوعي والضروري لنظام ما ، ولكن أحد أسباب وجود هذا النظام الرئيسية ، وفي هذه الحالة يجرى نفاذ الأنظمة وعملها من مظاهرها اللاتي ويصبح المعنى الظاهري هو الممكن الوحيد . وحين يحدث ذلك ، فان صناعة الصور الواعية ، أي الاتجاه الصحفي والمعالجة الصحفية ، تؤدي الى خفض قيمة كل معنى ذاتي . وهكذا يصبح بسان المعنى أسلوبا يجرى به المعنى من مشمولته .

#### الكاتبان : روبرت ليفنولد

ولد في ١٩٢٧ ، حاصل على الماجستير في الادب من جامعة نيويورك ( الموسيقي ) ، وعلى الماجستير في الاداب ( معلم الاجتماع ) من الجامعة الجديدة للابحاث الاجتماعية New School for Social Research مدير مشروع السكان والسمة والخطا يتركز الابحاث الاجتماعية ، سيتي يونيفرسيتي اوف نيويورك . محاضر في المدرسة الجديدة للابحاث الاجتماعية . اهم مؤلفاته : للدخل الى الموسيقي ، الموجز في الهرمونية ، طلاقة على عدد كبير من المقالات المتخصصة .

#### جوزيف بنسلمان

ولد عام ١٩٢٢ ، حالي على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كولومبيا ، استأصل في الاجتماع في سينيونيونيرستيه بنيويورك . أستاذ زائر في جامعة أليستتر ( إنجلترا ) خلال العام الجامعي ١٩٦٧-١٩٦٨ في ايهي مؤلفاته : المدينة الصغيرة في المجتمع الجماهيري ( بالاشتراك مع تيريز فريكات ) ، الجماهير والطبقة البروتراطية ( بالاشتراك مع برنارد دوزنبرج ) ، مقالات في دراسات الجماعات ( بالاشتراك مع ا. فريك ) وموريس شتاين ( الدولارات والمعنى : دراسة في السلوك المعنى وفي معنى العمل في المجتمع الحديث ، هذا فضلا عن عدد كبير من المقالات المنشورة في المجلات المتخصصة .

#### للكرجم : د. خليل صابك

استاذ الصحافة بكلية آداب القاهرة

# تَبَيَّنَ

رقم العدد وتاريخه	المنوان الاجنبى واسم الكاتب	المقال وتاريخه
العدد : ٥٠ عام : ١٩٦٥	<b>The Coming Supremacy of The Aesthetic</b> by Karl Aschenbrenner	المستقبل للقيم الجمالية بقلم : كارل آسشنبرنر
العدد : ٦٩ عام : ١٩٧٠	<b>The Nationalism of Leonardo Da Vinci and the Dawn of Classical Science</b> by Boris Kousnetsov	عقلانية ليوناردو دافنشى وغير المسلم الكلاسيكى بقلم : بوريس كوزنيتسوف
العدد : ٦٩ عام : ١٩٧٠	<b>Historical Facts and their Selection</b> by Adam Schaff	الوقائع التاريخية واختيارها بقلم : آدم شاف
العدد : ٦٤ عام : ١٩٦٨	<b>Marx and the End of History</b> by Robert C. Tucker	ماركس ونهاية التاريخ بقلم : روبرت توك
العدد : ٦٩ عام : ١٩٧٠	<b>Past and Future of Rural Communities:</b> by Henri Mendras	ماضى المجتمعات الريفية ومستقبلها بقلم : هنرى مندراس
العدد : ٦٨ عام : ١٩٧٠	<b>L. Attitude Journalistique</b> par Joseph Benamou et Robert Lilienfeld	الاجتهاد الصحفي بقلم : جوزيف بنيمان روبرت ليلينفيلد

## المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية

مجلة دولية تصدرها هيئة اليونسكو الدولية ،  
توفر من الدراسات الاجتماعية ما هو ضروري ولازم  
لتنظيم المجتمعات وتعمق مشكلات العصر ، والوصول  
إلى حلول تواجه المستقبل •

تصدر أربع مرات في السنة :

يناير - أبريل - يوليو - أكتوبر

صدر العدد الأول يوم الاثنين ١٧ أكتوبر ١٩٧٠ وصدر  
العدد الثاني يوم الثلاثاء ، ٥ يناير ١٩٧١ حوالي مائة  
صفحة ، وسعر أقل من التكلفة •

عشرة قروش أو ما يعادلها •

الاشتراك ٤٠ قرشا ، خلال مصاريف البريد •

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو •

ومركز مطبوعات اليونسكو •

# الاشتراك

## في المجلات الدورية الجديدة ومجلة "رسالة اليونسكو"

تصدر المجلات التالية على التوالي ، عن مجلة رسالة  
اليونسكو ومركز مطبوعات اليونسكو ، وبيع العدد منها  
ب عشرة قروش • وهو سعر يقل عن تكلفة كل عدد ، تمكننا  
للقرء العرب ولجمهور النارسين من الحصول عليه :

● المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية

يناير - أبريل - يوليه - أكتوبر

● مجلة اليونسكو للمكتبات

فبراير - مايو - أغسطس - نوفمبر

● العلم والمجتمع

مارس - يوليه - سبتمبر - ديسمبر

● ديوجين

مايو - نوفمبر

## وتصدر مجلة رسالة اليونسكو شهريًا

وتباع بأربعة قروش ، يسر يقل عن تكلفة كل عدد •  
ولضمان الحصول على هذه الأعداد بانتظام يمكن للهيئات  
والمعاهد العلمية والأفراد الاشتراك في كل منها بأربعين قرشا  
في العام ، عما مصروفات البريد •

والاشتراك الكامل لكل هذه المجلات هو ١٧٠ قرشا في  
العام ، بخلاف اجرة البريد •

# مجلة رسالة اليونسكو

المجلة الشهرية التي تصدرها هيئة اليونسكو بباريس باللغتين  
الانجليزية والفرنسية ، وتترجم الى عشر لغات اخرى من لغات  
العالم ، ويتناولها ملايين القراء بمختلف اللغات •

تدرس الحضارات القديمة ، وتقدمها للأجيال بكل ما فيها من  
قيم ، في محاولة جادة للربط بين الوجدان العام برباط من الاحترام  
والقدير لكل حضارة ، ولأبنائها من الأجيال التي تعاقبت عليها ،  
ليسود الفهم بين الناس ، مما يؤدي الى اتقانهم واستقرار السلام •

« رسالة اليونسكو » لا تلقت عند القديم ، ولكنها تبسط العلم  
الحديث وتضعه في صيغة تكون في متناول كل المستويات ، وذلك  
لنشر العلم ورفع مستوى الحياة واستقرار السلام على أساس  
من الاطمئنان والافتتاح بالعمل الدولي •

صدرت الطبعة العربية منها منذ عشر سنوات ، وقد دعمت  
بصفحات ملونة تطبع في باريس ، وتقدمها هيئة اليونسكو هدية الى  
الطبعة العربية •

يصدر العدد الجديد في ٥ مارس ١٩٧١

تصدر الطبعة العربية شهريا وتباع بـ ٤ قروش



# مجلة العام والمجتمع

المجلة النولية التي تغطي مشكلات الساعة الى مشكلات الله .  
وتتناول فيما تتناوله من الأمور : تطورات العلم الهائلة ، وكيف  
تتأثر الحياة بهذه التطورات الى الحد الذي سيجعل من حياة هذا  
الجيل ، مشهلا من المشاهد المتخيلة في نظر الجيل القادم .  
وفي مثل هذا التطور الهائل ، تهتم المرونة على كل انسان  
ان يتابع هذا التطور ، ليحدد موقفه من الحياة ، وموقفه من الاجيال  
التي تتسلم منه امانة الحياة .

ان التفكير أبناء الله ، سيكون صبوراً لهذه التطورات الهائلة  
والسرعة في مجال العلم ، ومن الطبع لأبناء هذا الجيل أن يدرك  
هذه الحقيقة ليقيم مسئلة الكائنات على أساس متين .

ومجلة العام والمجتمع التي يصدرها بيتا اليونسكو النولية  
تصدر للمرة الأولى في شهر  
مارس سنة ١٩٧١ .

تتناول كل طيف العلوم والفنون جوامع العلم ، واختيار خبره  
قريباً من مستقبل البشر العدد الثاني في مارس سنة ١٩٧١  
على قرابة مائة صفحة ، وبشرة قروشي .

الاشتراك السنوي أربعون قرشا غير مصروفات البريد .

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو  
ومركز مطبوعات اليونسكو

# مجلة اليونسكو للمكتبات

أول طبعة عربية من المجلة المولدة التي تصدرها هيئة اليونسكو  
عن المكتبات ، والفخمة المكتبية ، والعناية بشؤون الكتاب •

تصدر أربع مرات في السنة في الخامس من شهور :

فبراير - مايو - أغسطس - نوفمبر •

حيث يتناول خبراء الكتب والمكتبات في العالم شؤون المكتبات  
والفخمة المكتبية ويسير القراءة لكل الأعمار والمستويات •

صدر العدد الأول في نوفمبر ١٩٧٠

وسدر العدد الثاني في فبراير ١٩٧١

في ثمانين صفحة - ١٠ قروش

الاشتراك السنوي أربعون قرشا غير مصروفات البريد •

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو

ومركز مطبوعات اليونسكو

الشركة المصرية للطباعة والنشر صحافة

  
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA  
مكتبة الإسكندرية



الثلثون • ١ قرش

## مجلة رسالة اليونسكو ومركز مطبوعات اليونسكو

تقدم مجموعة من المجلات الدولية بالسلام كتاب  
متخصصين وأسئلة دافعين •  
ويقوم باختيارها ونقلها إلى العربية نغمة ممتازة من  
الأساندة العرب •

لتصبح إضافة إلى المكتبة العربية تساهم في التوا  
الفكر العربي ، وتبكيه من ملاحقة البحث في قضايا  
الصح •

## مجلة رسالة اليونسكو

تصدر شهريا

## المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية

يناير - أبريل - يوليو - أكتوبر

## مجلة اليونسكو للمكتبات

فبراير - مايو - أغسطس - نوفمبر

## العلم والمجتمع

مارس - يونيو - سبتمبر - ديسمبر

## مجلة (ديوجالين)

مايو - نوفمبر

مجموعة من المجلات الجادة ، تصدرها هيئة اليونسكو  
بلغايا الدولية ، وتصدر طبائها العربية بالاتفاق مع  
السمية القومية لليونسكو ، وبمعاونة الشعب القومية  
العربية ، ووزارة الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة •